رواية

بذة عفريت

عبد الفتاح الجمل



بطاقة فهرسة



سلسلة

إبداع الحرية

سلسلة غير دورية تعنى

بنشر الإبداعات العربية

مستشارو التحرير

حزين عمر

عبد المنعم الباز

حنان فتحي

الطبعة الأولى 2018

سلسلة غير دورية تعنى بنشر الإبداعات العربية في (القصة – الشعر – الرواية – المسرح – النقد).

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **رواية.... بخة عفريت**

المـــــــؤلف : عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

رقــم الإيداع : 7623/ 2019م

الترقيم الدولي: 2-136-834-977-978



رواية

بخة عفريت

(1)

الفصل الأول

يا أول كل شـهر، لا تأتي.. يا رب بحق جاه نبيك وشـفيعك المصـطفى (ص) لا تعده عليه إذا جاء بشكل موجع.. اللهم لا تجعل له قدما تمشي في حذاء ضيقة.

لا تزال الفرصة غير متاحة، لكي يصارح أباه بأنه حرق دمه في يوم كان يمكن أن يكون بهجة القلب ومتعة الروح، كل ذلك بسـبب تلك الحذاء التي ليسـت على مقاس قدمه، والدفع به للمشي، في يوم زعم أنه للنزهة.

جعل له اليوم الأول من كل شـهر للنزهة.. يا ليته أطلق عليه يوم النكد والمصـائب، اكتشف الولد أن أباه كان يستغله للتنفيس عن نفسه هو.. نسى أن لابنه نفْسا لا يهمه أن يستمع إلى أصواتها، وجد فيه فرصة ذهبية ليخبره أن ذئبا نهشه، وتاجرا غشه، و صاحب مصنع للصابون تفنن في تلويث روحه واستغله حتى النخاع، وزملاء في العمل كلما سعى للمطالبة بحقوقهم، انقلبوا عليه مدعين أمام صاحب المصنع الرضى وعدم التذمر، ثم من ورائه يلعنون ويسخطون.

نجح أبوه في اسـتمالته، بالشـاكية، توهم أنه نسـى الآم الحذاء، وعرف كيف تكون المعاناة الحقيقية، وكيف كان أبوه يتخبط بين جنبات الحياة.

في فورة حماس ابن الثالثة عشـر، طلب المنسـي إلى المعلم معروف أن يحدد له ملامح الأشرار، أو أن يشير بإصبعه إليهم.. قد يصل ذات يوم إلى أماكنهم فيعرف كيف يكيل لهم الصاع صاعين.

انتفخ صـدر المعلم معروف بالرضـى، تيقن في هذه اللحظة أنه أنجب –بالفعل– رجلا سينتقم له.. حسبه أنه كان عبّأ صدره بروح العداء وكراهية من نالوا منه.

غمغم بعدد من الأسماء: محمود.. صالح.. صادق.

وجد المنسـي الأسـماء وحدها لا تفي بالإيضـاح، أسـماء عارية عن التعريف في بلدة مليئة بالألآف من المحاميد.. الصالحين.. الصادقين.

خيل للمعلم معروف أنه يضع النقط على الحروف حين تأوه متمتما:

ـــ طول عمري الناس ظلماني.

هذه المحطة الثانية التي يحط على رصـيفها مواويل أوجاعه.. إنه رجل غير عادي، استطاع أن يقتنص الوقت لصالحه حتى يفرغ في لحظة واحدة على رأسه، كل هذه الهموم.. لا ينجح في ذلك الرجال العاديين:

ـــ تصدق بالله...

كجرح ينفجر بالنزيف.. في لحظة تسرب الشك الى قلب المنسي.. أو يعقل أن تكون الشمس ساطعة في انبهار دون أن ينعكس على وجه أبيه شعاع من نورها؟.. ألا يوجد في حياته سوى الظلام؟.. ألم يصادف في حياته ملاكا واحدا يمجد الله؟.. أيعقل أن يكون التقاهم من الشياطين؟

لا يعرف أي شيطان منهم أغراه لدرجة من الإيمان بأنه لن ينفلت من دائرة أعمالهم إلا على يد المنسي.. بإرشاداته سيصنع منه مستقبلا، يستند إليه بظهره في اطمئنان.

إنه لا يندفع به في عبث بين جنبات المدينة، عساه يشوف الدنيا على حقيقتها وهى تدير عجلتها، ويرى بعينيه الهرس، والطحن، والعلاقات المصاغة بالمراء والزيف.

باستولاد روح اليقظة في صدره، بالرغبة المشبوبة في تنمية مداركه.. ما أخذه من الحياة، أو ما أخذته الحياة منه.. التجارب التي مرت به، جميعها تصلح كدروس يمكن أن يستفيد ابنه منها.

لأجل كل شئ جميل سيأتي على يديه.. لأجل كل شئ جميل آت، رفع الغطاء عن لسانه، دونما تحوط واحتراز.. لفظ ما في جعبته، غير آبه لفارق السن بينهما.. ما ينشده أن يدير لعبة أوراق الحياة أمامه على المكشوف.

كان أشبه ما يكون بالمقامر الذي يلعب بآخر كارت في حياته...

حدثه عن المراحل التي يمر بها الإنسان، بما في ذلك ما يسمى بالصداقة.. العشق.. مشاكل المراهقة.. علاقة الرجل بالمرأة، وكيف يتصرف العريس مع عروسه ليثبت لها – ليلة الدخلة– أنه رجل مائة بالمائة:

ـــ الصغير بيكبر.. دا شئ طبيعي، وبدل ما تضرب

معك لخمة، يبقى أحسن تعرف كل حاجة من بدري.

احمرار وجنتي الولد لم تمنعه، من الإسهاب في خوض أدق التفاصيل المخجلة.. مسئوليته –كأب– تدفعه لكي يبعده عن مشاعر القطة العمياء.. خلع على لهجته مسوح رجال الدين.

قال في وقار:

ـــ لا حياء في الدين.. هذه سنة الله في خلقه.. عندما

تكبر ستعرف أنني كنت على حق.

أشاح عن أبيه بوجهه، أثار صوته المرتفع انتباه المارة، شيعوه بنظرة ملؤها الدهشة والإستنكار.. من جانبه، كان على استعداد لمناطحة من يبص إليه بطريقة لا تروقه.

عادة في مثل هذه المواقف، تتصاعد المشاعر بإطلاق شخرة طويلة من سقف حلقه.. الجحوظ الذي يطرأ على عينيه فجأة،، يجعله مثل عفريت يندلع منهما بريق كالشرر، يجفل الناس من رؤيته، وهم يسلمون بأنه من ذلك الجنس الذي تتحكم الطبيعة الإستفزازية في تصرفاتهم.

نسى دوره كمعلم، وفتر اهتمامه بالولد الذي وقف هناك منكمشا في رعب، وجعل باب التحرش بالآخرين مفتوحا على مصراعيه.. لا يسايس.. لا يلين، بل كان على استعداد لإشعال العراك بسبب هفوة، أو نظرة عين لا تعجبه. في ومضة غير متوقعة، بدا صخبه الداخلي يهدأ، أراد ان يكون صاحب عقل أكبر من رؤوس هؤلاء.. قال للشيطان الذي كان يرقص أمام عينيه بصوت سمعوه:

ـــ اللهم أخزيك يا شيطان.

ثم اتجه إليهم في صرامة قائلا:

ـــ اقصروا الشر وابتعدوا عن سكتي.

فشل بعضهم في اقتلاع أقدامهم من أمامه، أذهلهم حديث الرجل حينما كان يحكي لإبنه قصة هذا الشارع.. كيف يدعي أن الأبنية المقامة على جانبيه ليست من مكونات الطوب والرمل والأسمنت والبوابات الحديدية؟

بين مرتاب وغير مصـــدق.. تســاءل أحدهم: كيف يدعى أن الأبنية المقامة على جانبي الشارع ليست من الطوب والأحجار؟.. نظر آخر الى الدور المرتفعة على خمسة طوابق وقال لنفسه: لا أعتقد إنها مصنوعة من الريح والخيال!!

بمشاعر الزهو وتخمة المعرفة، بص المعلم معروف في وجوههم كأنه يراهم من الطابق الخامس، أحجام صغيرة لم تعش مجد هذه الشوارع ويفاعتها، قد لا يصدق من لم يرها في نهاية العشرينات أنها عجنت بأنفاس ودماء أريقت على جنباتها لأولاد بلد وعشاق وفتوات كانوا يأتون من حي "الحوّار" لينازلوا فتوات "ميت حدر".. الصـــبان.. العجيزي.. العجوز.. الحجعلي، بقصد السيطرة على الأحياء الممتدة من بداية ساحل البحر الصغير الى نهاية أحياء البحر الكبير.

حكايات زاخرة بالفتوة والشهامة، وقصص لا تسمح له نفسه بأن يسقطها من الذاكرة.. لا يحب أن يســتعيدها أمام ابنه بالمجان.. المطلوب أن تكون وســيلة لانفتاح مخه بحيث تصبح العينان مفتوحتين مثل دائرة الفنجان المتسعة، مع أهميةالاستفادة من تفعيل الحواس حتى يلعب التنبؤ بما يتوقع حدوثه دورا يؤهله لأن يكون رائيا.. يضـــاف الى ذلك قدر من تكثيف المشاعر وتجسيدها مع تحريك المخيلة باستمرار.

توزعت مشاعر المنسي.. تشتت تفكيره، اجتاحه زئير مكتوم، نسى أبوه معاناته بسبب ضيق الحذاء.. رجل لا يطاق.. ما شانه بفتوات ميت حدر، وما الفائدة التي ستعود عليه من وراء شهامة فتوات الحوّار؟.

عيبه في معظم الأوقات انه كان يتكلم معه كما يتكلم الأنداد مع بعضهم البعض، اذا شعر بأنه أغمض عينيه.. راح يلكزه في جنبه لكي يتخيل معه المحكي عنه.. يحثه حتى يخلع على الكلام المتدفق من بين شفتيه أشكالا يبث في أجسادها أرواحا تنبض بالحياة والحيوية، وأشكالا لأناس، شريطة ألا يدعى ـفيما بعدـ أنه لا يعرفهم، بل يجب أن يكون عرفهم جيدا، بعد ما شبعوا موتا، وأن يحبهم، ويكرههم كما كان هو يحبهم ويكرههم في حياته.

شئ عسير.. بل وشاق.

بإشارة من عينيه، مال في اتجاهها ناحية السوق، توقع أن توقف الضوضاء استرساله في الكلام.. تمنى أن يحتفظ أبوه لنفسه بذلك الكم الهائل من النصائح.. النصيحة –وحدها– لا تفيد، ليدعه برهة حتى يشبع عينيه من التهام الفاكهة.. قطع البسبوسة الغارقة في العسل والسمن.. القطعة بنصف قرش.. نصف قرش يا رجل.. البائع يتساهل

حتى لا يحرم أمثاله من التذوق والاستمتاع، بنكلة يبيع، والله لو مد إليه يده بالسؤال سيعطيه.. المشكلة في من لا يشتري ولا يتكلم، انه يفضل دائما أن يبتعد عن هذه الأشياء الصغيرة، لأن أبنه -بنظره- تجاوز مطالب العيال الصغيرة، ولا يجب أن يسيل لعابه أمام نبوت الغفير والعسلية، وفي نفس الوقت كان يبشره بأنه لن يخرج من السوق خالي الوفاض، بل بنفس عامرة، وغنائم لا تعد ولا تحصى، بشرط ان يسمع كلامه، وأن يهتم بالتركيز على استقبال واستيعاب ما وراء كل وجه يراه على ارض السوق.

لفت للمرة الثانية انتباهه الى تصرفات الباعة والمشترين.. يرى انه مهتم جدا بتصويب أفكاره بين وقت وآخر، المتابعة بحد ذاتها لا تكفي، اليقظة مهمة للنفاذ إلى ما وراء كل قصد.. ما يجري على السطح ليس الحقيقة، هناك فيما وراء الجواهر التي لا تعلن عن نفسها، ويدفعه لأن يتصيدها.

هناك في السوق من يرى أجمل ما فيها أن ينعم القادرون بالشراء، والأكل حتى انتفاخ عروق الأوداج بالتخمة، ثم يأتي اللعب ليمارس دوره في إشاعة جو المرح.

في السوق يوجد أناس أصيبت قلوبهم بالعطب، وباعة يتجملون بالصبر مع المشترين، وباعة آخرون يضيقون ذرعا بكثرة المساومات والمناكفة، بغية الحصول على تخفيضات مناسبة لأسعار السلع.

الرجل الذي كشفت سره امرأة كان يتمنى أن يخرج من السوق بقطعة لحم دافئة تشبع جوعه وتدفئ صــدره، على أثر احتكاكه بامرأة بدينة، فرشــت له ملاءتها الســوداء على الأرض.. دعته بين زحام الخلق ان يأتيها إذا كان شــايف في نفســه أنه عنتر زمانه.. دعته بطريقة إباحية، قائلة:

ــــ تعال يا روح أمك، وريني نفسك.

شمرت عن أكمامها، راحت تحرك بين عينيه عددا من أصابع يديها:

ــــ ان كنت شاطر بصحيح

تعال وريني رجولتك.

قرص المعلم معروف ابنه بإصــبعين في كتفه، كأن الإصــبعين فم ثعبان يلدغ، حاول أن يبتعد به عن قباحة هذه المرآة، موضــحا أن التي ســمحت لنفســها أن تفرش الملاءة على أرض السوق، يسكن جسدها جوع لبؤة لا تشبع إلا إذا افترس جسدها أسد، يعرف كيف ينهش اللحم، ولا تكف أنيابه عن المضغ. :

ــــ تعال يا إبني نبتعد عن سكة الشر.

سحبه من يده ناحية المنكفئين على الموازين وهم ينظرون شذرا إلى الرجل الذي كان يتضاءل وينكمش في خزي، ولا يستطيع أن يقترب من الملاءة المفروشة علانية، حتى لا يكون مدانا بعدم الرجولة، وإذ شحبت ملامح وجهه أمام شراستها، فأقر الجميع بأنه أصبح مثل الديك المنتوف ريشه.

عندما خرجا من السوق، شغله أبوه بإجراء عدة عمليات حسابية في مسائل رأى المنسي أنه ليس له سهم واحدا فيها.

خلاصة العمليات التي أجراها -وهى أرقام فلكية في الفراغ- رأى إنها تشكل في حياته قيمة كبرى، وهى الخلاصة التي حاز عليها باجتهاده على الرغم من عدم ذهابه إلى المدرسة، إذ بحسبة بسيطة يمكنه ان يحل جميع المسائل الصعبة.

لكن.. لا يدري لماذا عندما يأتي الحديث عن مشاكل الحذاء الضيقة كان يضيق بها ذرعا، ولا يجد لها أي حل عادل؟.

مع ذلك كان له رأي في الزراعة، والعمارة، ورأس المال، والتجارة، وكان يرى ان قطاعا كبيرا منها يستند إلى قاعدة شيطانية، لأنها تأخذ من طبيعة الإنسان وتنمي فيه مشاعر الحقارة والاستغلال، ثم تصب في الأسواق، بعد أن تكون قد تحولت في صدر التجار، إلى عمل فاسد.

(2)

الفصل الثاني

في يوم نزهة الشهر الماضي، فوجئ بمن يهللون ويبشون:

ـــ يا مرحب بالمعلم معروف.

شد على يديه أربعة رجال، تشاغل المنسي في التحديق فيهم خلسة، من في هؤلاء تنكر لأبيه وظلمه؟.. يبدو أن المعلم معروف نسي أنه غرز في صدره وعينيه، نظرة العداء والكراهية.

العجيب في أمر ذلك الرجل أنه كان ممتنا لحفاوتهم بابنه، ثم وهم يرفعون على رؤوسهم الكراسي ليجلسونه بجوراهم.

أليس هؤلاء من كان يدعى أنهم ظلموه؟.. كيف يكون الإنسان مظلوما وهو يضحك في وجوه ظالميه؟.. لا يعرف لماذا ومضت في رأسه صورة تلك المرأة؟.. في حالة إذا تقدم الرجل ليريها شطارته، هل كانت ستخلع كم قطعة أخرى من ملابسها؟.

آلة حب الاستطلاع لديه دائما يصيبها أبوه بالعطب، أو بقرصة في صدره لينحيه بعيدا.. مع أن الأشياء أيا كانت، إذا ظهرت في وضوح –كما المرأة عندما فرشت الملاءة– لا تدل إلا على الصراحة،

والصـراحة في أي شـئ ليسـت صـفة مرذولة، المعلم معروف حدثه مرارا عن فضـيلة الصـراحة، لكنه في مواقف أخرى كان مهتما في شـحنه بمواد ناسـفة من التلوث.. كؤوس من الفضائل وكؤوس من الرذائل.

سدد إليه النظر.. يضحك الآن ويقهقه معهم، كأنه ليس هو الذي يعرفه، أو كأنهم ليسوا هم الذين يعرفونه، نسى في لحظات القهقهة أنه كان يرتاح جدا لو ضع همومه ومشاكله مع الآخرين على كتفيه.

إنه لا يتعامل مع بشر، انه يتعامل مع العفاريت.. ابوه عفريت وهم عفاريت، وهو صار عفريتا صغيرا.

في ضـيق –لم تتح له الفرصـة للإعلان عنه- قرر ألا يظل في يده مثل مقشـة الزبال التي يدفع بها كناسـة سـوق السـمك، الأمر يحتاج إلى وقت يهيئ له الانتصـار على عفريت أبيه وعفاريت أصـحابه، لسـوف تهبه الشـجاعة حق الجهر بأنه يظل يمضـي إلى جوار رجل لا يعرف أنه أول من صنع الأحزان في حياته.

من فرط اهتمامه بلقاء أصـحابه في ذلك اليوم، حرص على أن تكون الجلباب مكوية.. الحذاء لامعة، الطربوش مكوي، الذقن تركها وهو مطمئن لمو سى الأ سطى ربيع الحلاق تعمل فيها بالنعومة.

ملامح الوجه اختفت تحت نظرات المنسـي.. رغوات صـابون الحلاقة جعلت لأبيه وجها مثل بالونه بيضاء منبعجة.. يا ليته يظل هنا منبعجا ومنتفخا حتى لا يتعرف عليه أحد.

باغته في الشارع بقوله وإصبعه تشير ناحية بعيدة:

ـــ شايف العمارة الكبيرة اللي على

ناصية شارع الكونت صعب.

أرسـل نظراته في فتور وعدم اهتمام إلى بعيد، قبل أن يجيب بكلمة نعم، كان المعلم معروف قد تحول إلى قلم ومسطرة وجدول الضرب، أعطى رقما بعدد الجدران الخارجية، هذه حسبة تبدو سهلة، إنما حين ير صد عدد جدران شقق العمارة من الداخل فهذا شئ يكاد يكون صعبا.. إنه عفريت حقا، يذكره بأنه بليد جدا في مسائل الحساب والهندسة.

امسكه من كتفيه حتى يتوقف عن المشي، وليقل له أنه على ا ستعداد لمناقشة لجنة من كبار مهندسي البلدة وإفحامهم، لكن الزمن الجاحد ومن لا يقدروا قيمته، وقفوا ضده.

على الرغم من ذ لك، لا تعرف قامته أن تنحني إلا لخالقه، حتى لو هبت الزوابع وهددته بقطع العيش والفصل من العمل، سيظل متشبثا بوجهة نظر لا يخونها حتى لو كان حبل المشنقة ملتفا حول رقبته.

ثم تابع المشي في صلف، آملا أن يكون أعطى لإبنه درسا آخر يستفيد منه في حياته.. ألم يعينه على استخراج الحقائق من قلب السوق؟.. ألم يتعلم من مشاهداته شيئا؟

يكفيه التقدير الذي لمحه في بريق من الإعجاب يـشع من عيني ابنه، عبر ومـضة خاطفة قال خلالها: لو أن أباه نـشأ في أسرة محترمة وميـسورة الحال.. لو أنه لم يولد يتيما لأصبح الآن له شأن كبير بين مهندسي المدينة.

لم يلبث على حاله، إذا انقلب عليه بمشـاعره.. كيف يتوهم أن يكون من كبار مهندسـي المدينة بعد أن أبعده عن الشرفات التي كان يتمنى أن يطالعها بعينيه او يطل منها برأسه؟.

التفت إليه بابتسـامة منفرجة على شـفتيه، غير مكترث باحتكاك كتفيه بالباعة الجائلين، تغاضى عن امتعاضهم، زعم بأنهكان مبسوطا جدا من حكاية تذكرها في التو، وعد بسردها عليه في جو يكون بعيدا عن الجلبة والضجيج، لأنها مليئة بالمواعظ والعبر.

وجد نفسـه محاطا بالاهتمام في قهوة المعلم مصـطفى عوض، قدمه إلى فتوات «ميت حدر» القدامى، مال عليه هامسـا في أذنه كأنه رجل كبير.. قال كلاما كثيرا، خلاصـته أنه لم يظهر من بعدهم فتوات يهتمون بالدفاع عن الضعفاء، ولم تعد قضيتهم يتبناها احد من ذوي المرؤة والشجاعة،

قدمه إلى بعض من فتوات الزمن الجميل: المعلم العدروسـي.. المعلم الصـبان ابو الروس.. المعلم العجيزي.

في اللحظة التي بسط العجيزي يده أمامه، شخط فيه أبوه آمرا:

ـــ قم، فز.. بوس إيد سيدك العجيزي.

كيف يسيّده عليه، وهو وإن كان لا يزال يعيش على رائحة زمان إلا أن أحدا من هؤلاء لم يكونوا يعملون لأحد أي حساب إلا لعمه أحمد؟، أبوه هو الذي قال له ذلك بعضمة لسانه.

استعاد ملامح ذلك الوجه.. العم كان يعمل حدادا للمسلح والعمارات الخرسانية، كان لا يعود من أقاصي مديريات المملكة المصرية إلا بعد مضي عدة شهور، الفتوة القديم ترك أمور الفتونة وبما كانت تخلع عليه قدرا من المهابة والاحترام، وصار مهتما بالسعي وراء لقمة العيش، ومحايلة القرش واستخراجه حتى لو كان في فم سبع، أو بين أنياب الثعابين.

كانت الجدة قبل وفاتها تبادره بالسؤال عندما تفاجأ به واقفا إمامها. :

ـــ كنت فين طول المدة دي يا ولد؟.

العم الذي تجاوز الخمسين من العمر كان لا يزال ولدا بنظر الأم، وكان المنسي يراه وهو يجيب عليها مبتسما قائلا:

ـــ كنت في الأناضول.

أو بقوله:

ـــ كنت بأشتغل في ترميمات خزان أسوان.

حينماوصل أصحابأبيهإلى المقهى تباعا، وفيهم حسبما قال له:

كذابون.. نمامون.. وفيهم ابن كاس وطاس، ومنهم من كانوا على صـــلة قوية ببيوت الدعارة، وفيهم عمال وســـائقين في شـــركة جوزيف كافوري، وطباخين في بيوت الأســـر الموسرة، وفيهم من يجتمع على شيخ من العفاريت يسكن قلوبهم. بنفس دهشة العفاريت البلهاء التي اســـتقبلوه بها أول مرة، أحاطوه بســـيل من اللزوجة، وبطعم مذاق البطيخ الحامض.. تساءلوا في دهشة:

ـــ ابن مين البعرور دا؟.

انتفخ المعلم معروف بالزهو.. يعطيه الســـؤال الحق في أن يصـــعر خده اســـتكبارا كأنه والد سيادة سبع البرومبة.. انتفاخ عروق الرقبة في صلابة، دفعت المنسي للتوهم، بأن هذا الرجل ليس هو الشخص الذي يعرفه، ربما لأنه حلق الذقن، ودعك الأسطى ربيع الحلاق وجهه بالكريم، ورش عليه نثارا من البودرة المعطرة، وقص الشـــارب الكث فبانت العينان واسعتان مخيفتان مثل عيون العفاريت الصغيرة، تحت حاجبين ثقيلتين..؟

ـــ قم، فز بوس إيد سيدك الصبان.

ما هى نهاية هذه الدروس بالضبط؟

هل جاء بهأبوهإلى قهوة العفاريت ليمرمط مشاعره بالإنحناء على أيادي الملوثين؟

بعد تقبيل اليد طلب له المعلم مصطفى عوض صاحب المقهى سطل خروب مثلج، ثم حدق في وجهه مبتسما قبل أن يمر على الزبائن محييا، وهو يتابع المشي –من باب المعلمة والفتونة– على شومة ظهر على جسدها نتؤات حديدية مثل رؤوس المسامير اللامعة.

شفط من الخروب شفطتين في ضيق وتبرم.. إلى متى يمشي إلى جوار هذا الرجل في عرج يشبه الكساح؟.. أيظل يمشي تحت وطأة الظلم إلى درجة الإنحناء على يبوسة كف ازدانت أصابعها بالخواتم الذهبية ذات الفصوص العقيقية؟.. لا بد أن يتكلم إذ لم يعد يتصور أن يرغم إنسان بالمشي الى جور شخص لا يعرفه ولا يعرف كيف يحبه؟.

على طريق العودة إلى البيت رآه يباعد بين منكبيه وجنبيه، غير مبال بحركة الجمال وضجيج العربات الخشبية المحملة بأكياس القطن، ذهب إلى حد الإدعاء بأن رغبة التحليق في الفضاء تتيح له الخلاص ممن امتصوا شقاء عمره وعرق جبينه.. إنه يطير فوق رأس صاحب مصنع الصابون الذي لوث حياته بالكراهية.

استملح المنسي أسلوبأبيه هذه المرة، زعم أن انشغاله بالتحليق سيريح الرأس من ثرثرته.. تمنى أن يظل يرتفع إلى سماء الله الوا سعة، ويظل معلقا في ف ضائها، ولا يفرغ أبدا من التحليق إلا بعد سنة على الأقل، يكون خلالها قد صار على عتبات الأزهر كطالب ينتظر أباه الذي سيعود إلى ألأرض محتضننا الحذاء التي تشجعه وتعينه على المضي معه في ارتياح.

ثم راجع نفسه مستنكرا، أنه لم يشاهد في حياته إنسانا يطير في سماء الله بقدمين مغروزتين في بعر الماعزوروث الحمير.

سمح التحليق له با ستعادة الوجه الذي انعكس على صفحة المرآة.. رغاوات الصابون وانسياب الفرشاة على الخدين، ثم الأذن التي اتسعت لهمسات الأسطى ربيع، فجرت القهقهات في صدر أبيه، ومعه طقطقات المقص، اندلعت صرخات العفاريت حتى غطت جسد تلك المرأة التي فرشت الملاءة في السوق، وقد تخيل الأسطى ربيع الجسد المنطرح أرضا، ووجد لديه الاستطاعة لأن يعتليه.

المصيبة أن أباه قبل أن يعود إليأرض الواقع، طلب إليه وهو يعلو ويرتفع أن يشترك معه في اقتناص هذه اللحظات التي وصفها بالسعيدة:

ـــ حاول تطير يا ولد.. حاول..

أمن المعقول أن يطلع مثله إلى الفضـــاء الفارغ من أي معنى، ويفرج الناس على خيبة رجائه؟.. ثم لماذا وهو دائم الصـعود لم يشـفه عندما كان يكز على أسـنانه بسـبب ضـيق الحذاء؟.

لقد صورت له نفسه أكذوبة التحليق والانتصار على أناس لم يستطع الدخول معهم في مواجهة علنية، وفضل الهروب بتحريك راحتيه كجناحي طائر ليلي لا يعترف بالهزيمة.

انحدرت به هذه المشاعر، ثم صعدت صوب أفق ينذر بالسخط على طريق كان الضيق بنفسه على بابها موجودا.. بوادر العاصفة كانت تنذر بأن الانفجار واقع لا محالة.

من الأمور المثيرة للاسـتياء أن المنسـي كان على قناعة تامة بأن أباه على دراية واسـعة بالحياة.. لا شـك أنه يعي ما تحدثه الحذاء الضـيقة من عدم الاتزان في التفكير.. ما الذي جعله يتجاهل مشاعره حتى كاد أن يصل به إلى مشارف الجنون؟.

وعلى الرغم من الحجة القاطعة التي بسـببها لم يسـتطع أن يشـتري حذاء على مقاسـه، فلماذا لا يدعه يمشـي حرا في الحفاء؟.. إنه لا يسـتطيع سـوى أن يغرقه في صـور من الاهتمامات الفارغة.. الشـوارع.. السـوق.. العمارات.. الفتوات، إلى جانب ذلك كان شاطرا جدا في العمليات الحسابية، مع ضرب العديد من الأمثال:

ـــ خذ عنك مثلا...

المشــي في الأحذية الضــيقة من شــانه أن يكلل في نهاية الأمر بالانتصــار على وجوه التشــوهات والإعاقة.. المطلوب –فقط منه– أن يتحلى بقدر من الجلد، إذ أن كل مســافة سيقطعها في المشي الى جواره –مع الأخذ بنصائحه– لا بد أنها ستضيف سنتيمترا في اتساع الحذاء.

منْ مِن المجانين يصدق مزاعم أبيه؟.

إلى متى ســيظل يمضــي إلى جواره مفكك الأوصــال، ممزق المشــاعر؟.. إنه يرتقب اللحظة التي ســيناطح فيها تألقه المكون من زيف الأصــدقاء الخباصــين.. الكذابين، ومن كانوا لا يزالون يدفعونه في خداع إلى محيط من العنطزة والنفخة الفارغة؟.

كان إذاأمره بالمـ شي.. يمـ شي، إذا قال له انتظر، كان لا يتحرك قيد أنمله، مع انه كان في مختلف الأحوال لا يمشــي، بل كان يتمنى ان يزحف –بحرية– على بطنه مثل الســحالي والثعابين.

باغته بعد ان ابتعدت الجمال بأحمالها وتلا شت أ صوات قعقعة العربات بـ صوت مفعم بالدفء، معلنا عن سعادته بنهاية يوم الفـ سحة الممتع، وتكليلا لما بذله المنـ سي من جهد فانه على استعداد لتلبية أي طلب له.

أخفى المنسي ارتيابه متسائلا:

ـــ أي طلب؟

أجاب المعلم معروف بمنتهى الكرم ورأسه يهتز بالانسجام:

ـــ مستعد أنفذ لك كل طلباتك.

اندفع قائلا:

ـــ نفسي في طبلة وفانوس.

ـــ طبلة وفانوس يا ابن الكلب!

ابتعد عنه في نفور على الرصيف.. تمنى المنسي أن يأخذ أبوه الرصيف ويصعدإلى السماء.. هل تكسرت أجنحته؟.. يا ليته يحلق مرة أخرى بعيدا عنه.. سيكون ممتنا للظروف التي تغنيه عن سماع نصائحه.

لحظة.. تسرب الشك خلالها الى نفسه.. مصيبة أن يكون أبوه شعر بالافتقاد والوحشة، أو يكون راجع نفسه للتخلي عن الرصيف والعودة إلى جواره.. كل ذلك ليس عليه بغريب.. أليس هو من يجسد التحليق بغير أجنحة؟.. في لحظة يمكنه ان ينتقل من النقيض إلى النقيض.. من أقصى حالات الفرح إليأقصى حالات الحزن.

ماذا يريد أن يصنع به بالضبط؟.

بمجرد ما ان عرف أنه يرغب في اقتناء طبلة وفانوسا، رماه بالكلب، فما باله يصنع معهإذا علم أنه يملك بالفعل طبلة أخفاها بعيدا عن عينيه؟.

بدأ يدير كلام المنسي في رأسه من جديد.. أداره على مختلف الوجوه.. ما كان ليتصور أن يصبح حلم من عقد عليه الآمال أن تكون غايته في الدنيا الحصول على فانوس وطبلة.

ـــ آه يا ابن الكلب.

أصبح كل منهما منفردا بنفسه على رصيف، بات من الصعب أن يجمعهما رصيف واحد.. لقد صارا متقابلان جسديا.. متباعدان نفسيا، في لحظة خاطفة، اعتراه –كوالد– شعور آخر، وجد نفسه يفكر في حل يعالج العطب الذي اكتشفه في تفكير ابنه.. اهتدى الى تصور خفف من حدة استيائه.. الولد لا يزال صفحة بيضاء.. الولد عوده أخضر.. أمام مسئوليته –كأب– عرك الحياة، لا بد أن يهتم بتصويب خطواته لا ان يناصبه العداء.. يستطيع بالمحبة أن يشحذ عزيمته للنظر الى أعلى، عساه يهتدي في النهاية بتجارب الفقراء الذين أصبحوا بكفاحهم أغنياء:

ـــ خذ عندك –مثلا– شهبور أغا ابن جارنا خليل أغا

سواق الأتوبيس أصبح باجتهاده كونستابل.

لم يسمع صوت المنسي الممزق وهو يئن: كونستابل إيه وعسل ا سود إيه؟.. يا رأس معلمين «ميت حدر».. يا محط احترام فتوات «الحوّار» .. حرام عليك، الجزمة في قدميه تحولت إلى قالب من النار.. الجزمة عامله أزمة في يافوخه.. كل الأشياء البسيطة التي أحبها وراقت له، تجاوزها سيد الجدعنة والمفهومية.. يغض النظر عن طبق الكسكسى.. الفارس الذي امتشق سيفا من غمده وامتطى صهوة حصان حلاوة المولد، عمل كأنه لم يره.. كل الأشياء التي يحبها، لماذا لا يحبها أبوه؟.

يا ناس.. يامن تـ سيرون في بُلغ قا سية ونعال وأخفاف من جلود الأبقار والجاموس،هو لا يحسدكم، وإنما يتمنى أن يدعه من لا يرحم حتى يمشي في الطرقات حافيا... :،

ــــ يا ابني.. اسمعني..

بسط راحته على كتفيه كأنهابنوأخ وصديق.. باغته بسؤال ما كان ليخطر له على بال:

ــــ تعرف إنا نفسي في إيه؟.

ارتاب المنسي في كل ما كانت تمليه عليه النفس.. توجس خيفة من نفس أبيه.. الخوف من أن أباه لن يرتاحإلاإذا انتقلت إليه جراثيم نفسه.. إنه يعرف.. لن يطمئن قلبه إلاإذا رآها تنشط في دماغه.

أردف موضحا بوجه يطفح بالبشر:

ـــ نفسي أشوفك من علماء الأزهر.

تغبشت نظرات المنسي.. من كونستابل في البوليس إلى الأزهر الشريف.. يا..ه، لقد أشبعه هما وغلبا.. ماذا يريد منه بالضبط؟.. كونستابل في سكه وشيخ في الأزهر سكة ثانية، فأي من السكتين تستطيع قدماه المضي فيها؟

بعد عدة خطوات قطعاها في صمت، استوقفه مستفسرا في بشاشة. :

ـــ أنت نفسك تطلع إيه؟

أجاب يغمره الأمل. :

ـــ نفسي اشتغل مسحراتي.

من الذي يكون له لسان صدق مثل طبلته؟.. إنها تسمعه ما يحب.. :

ـــ مسحراتي يا خنزير!!

قال وهو يدلف من الباب ضاربا كفا بكف:

ـــ يا حظك الأسود يا معروف.

أطفأت الست فضيلة وابور الجاز على حلة المحشي.. انتفضت أمامه تدق على صدرها في حسرة وهلع:

ـــ المنسي حصل له حاجه؟

كاد يقول لها: ياليت الكوليرا أخذته، ياليت عربة خبطته وداست على رأسه، وحينما دخل المنسي وراءه متعثرا في خطواته، شعر بأنه لا يطيق الجلباب على جسده ، حاول –من شدة غلبه– التخلص منها بالتمزيق فارتمت على صدره لكي تمنعه من تمزيق الجلباب التي اشترتها له بالتقسيط من أم مشيمر الدلالة، دون أن تعلم سبب جحوظ عينيه:

ـــ وحد الله وقل لي...

نفخ في وجهها كلمات خرجت حروفها من بين شفتيه مثل جمرات مفتتة، وحين التقت عيناه بقطعة من سحب السماء المطلة عليه عبر شباك الغرفة، قال منددا بصوت كالنعيب:

ـــ ابنك يا دكتوره.. بسلامته عايز يشتغل مسحراتي.

ابتعدت عنه وهى تداري ابتسامتها بطرف الطرحة، بينما ترك المنسي أباه ينعي مصابه فيه وجلس على الكنبة مهتما بالنفخ في أطراف قدميه المحتقنة.

تابعه في صـــمت وهو يبحث عن الطبلة، تناولته دوامة من الزوابع والقوارض وديدان الأرض.. الجراثيم الحية ذات الرؤوس الهيولية لا تموت، لم يملك سوى أن يصفع الباب في وجهها، ويعطي ظهره لعربة نقل الموتى.

لا يزال الرجل يبحث في عناد و شرا سة، لا يفهم أنه لا يوجد هناك من يستطيع أن يدق –مثله– ويستولى على القلوب بقصص الأنبياء.

لقد حرم نفســه من أشـياء كثيرة حتى أصـبحت لديه طبلة، حط المليم على المليم–من مصروفه اليومي– أصبح المليم قرش تعريفة، ثمأصبح التعريفة قرش صاغ، حرم نفسه من شراء العسلية والدندورمه واشتراها بخمسة عشر صاغا.

رأى نفســه يجوب بها شــوارع المدينة، بدأ بعطفة الســقعان وشــارع ســيتي، وميلاد والسكاك، ليسمع من كانوا يغطون في سبات إلى ما يجلي الصدور ويشرح النفوس.

ســيثبت –بعون الله– عدم وجود فرق بينه وبين محمود اللبان إلا في الطول وحجم العمامة المتكوره على الرأس، والـ سبحة بحباتها التا سعة والتـ سعين، وهى مدلاة من العنق على الصدر.. سيتمكن من الحصول على هذه الأشياء البسيطة مع مرور الوقت.

أما بخصوص العمل الذي كان يؤديه إبراهيم اللبان – شقيق محمود الأصغر – فإنه لا يحتاج لمن يتقدمه بخطوات وفي يده فانوس ينير عتمة الشوارع، إذ يمكنه المشي بغير فانوس دون أن يرهب أشباح الظلام، ولن يخاف من شراسة كلاب الليل التي رآها تتكالب على محمود اللبان بقصد أن تروعه بالتكشير عن أنيابها وإطلاق النباح، كإنذار أخير، إذا خطا بعده خطوة اخرى ستنهشه بالنواجذ والأنياب.

أمنيته أن يمشي في دروب الليل، يقول لمن قاموا لتناول السحور قصة الغزالة، التي أحبت سيدنا محمد لرحمته وعدله.. سينشد قصة الجمل الذي فر من وثنية أهل قريش وراح يمسح عنقه بثياب المصطفى الطاهرة، راجيا إياه أن يجيره من شرك الكفار وعذاب يوم القيامة.. سيفجر في القلوب طاقات كان يصنعها محمود اللبان من الحنين والأشواق لزيارة مقام الرسول والرغبة في الزهد والابتعاد عن المعاصي.

ما في ليلة من ليالي رمضان رفع فيها اللبان صوته بقصة من قصص الأنبياء الا ودمعت عينا أمه، كانت تصل إلى درجة الإجهاش والزهد في تناول سحور الصائمين.. صامت يوما بطوله –من غير سحور– بعد ان استمعت الى قصة اليهودي الذي اعتاد أن يضع فضلاته النجسة أمام عتبة النبي حتى إذا خرج لأداء فريضة صلاة الفجر تلوثت قدماه وثيابه.

لبثت مدة طويلة واجمة، شاردة الذهن لم تبدْاهتمامابأرجحة ضوء الفانوس في يد إبراهيم اللبان، ولا بظلال الأجساد المنعكسة في انبعاج وتكسر على واجهات البيوت، لدرجة أنها غفلت عن دعوة المنسي للسحور حين كان يمضي مع الأولاد في صفوف متلاحقة وراء طبلة المسحراتي.

على ارتفاع صوت دقات الطبلة، كانت تفتح الأبواب والشبابيك بالانشراح، أضواء البيوت الداخلية اندلعت على أرض الشوارع لتشارك في إبراز البهجة المتألقة على وجوه العيال والبنات.

لا أحد ممن تعلقت قلوبهم بطبلة اللبان وقصصه أراد أن يستمع الى نداءات الأمهات لكي يعودوا بسرعة قبل أن يبرد طعام السحور ويضرب مدفع الرفع، وقد حملت أنسام السحر مختلف الأدعية، مع ابتهال ورجاء وتمتمات بطلب الستر، وبنات ونسوان امتدت أياديهن بأطباق الكنافة واللحوم والكفتة والجبن والزيتون والحلاوة والبطيخ والشمام في اتجاه المسحراتي.

حين يرى إبراهيم اللبان أخاه يرفع الأنف في إباء وتعفف فلا يستجيب لإغراء مختلف المشهيات.. يتجمد في مكانه مثل تمثال، غير أنه مع كثرة الإلحاح، وحلفتك بالنبي والست الطاهرة ام هاشم وسيدنا الحسن والحسين..

حينذاك، يتنازل محمود اللبان عن ترفعه و شموخ أنفه، ويسارع إبراهيمبالا ستجابة بعد أن سـمح له أخوه بإيماءة خفيفة من رأسه قد لا يراها الكثيرون، ثم يستخرج إبراهيم في هدوء الزاهد من جيب جلبابه كيسين من القماش، جعل كيسا منهما لتعبئة، اللحوم المحمرة والكفتة والأرز والمكرو نة، والكيس الآخر جعله لتعبئة الكنا فة والقطايف والفاكهة.

في تلك اللحظات التي كانت تلتقي فيها النفوس بالمصافحة وتحمل نسمات ما قبل آذان الفجر الحمد والاستغفار، كان المعلم معروف حريصا على وضع عدد من الأرغفة بالقرب من تناول يده، وقد توزعت حولها أطباق الفول المدمس والبيض والجبنة القريش وأعواد الجرجير والسلاطة.

لمحت الست فضيلة على وجهه ما يشي بالقلق، كانت تلحّ عليه الرغبة في الكشف عن نتيجة عملية حسابية أجراها في ومضة خاطفة:

ـــ فيه حاجة عايز تقولها يا معلم.

تلقف السؤال الذي فتح له باب الحديث.. ذكر عدد الأطباق المختلفة من الأطعمة التي خرجت من بيوت الجيران.. قدرها بحوالي عشرين طبقا، عداأطباق الكنافة والقطايف والفاكهة.

غاب القصد من وراء هذه الإحصائية عن عقل المنسي، لم يتضح الهدف من ورائها إلا بعد أن أكد أبوه أن ما تناوله المسحراتي من عطفة السقعان في ليلة رمضانية واحدة يفي بإشباع أسرة لمدة شهر بالكامل.

بصت الست فضيلة إليه في استغراب.. وجد الفرصة مناسبة ليوسع من دائرة دهشتها، ذكر شارع ستي بساكنيه، والسكاك، والكسباني، منحيا المسحيين جانبا وبعيدا عن حساباته، ثم مسح ما تبقى في طبق الفول بلقمة حدفها تحت سقف حلقه وهو يقول:

ـــ شفتي المكاسب اللي بتعود عليه قد إيه.

تشاغلت عنه بالا ستماع إلي صوت منصور النجار.. اهتمت بمواربة الباب، بصت من خلاله، رأت الدموع تسيل على خديه وهو يقول أنه أقلع عن شرب الخمر بمنا سبة حلول شهر رمضان المبارك.

سارع المنسي للوقوف وراء أمه، رأى منصور النجار يشخط في وجه زوجته نعنو شة حتى تسرع بطبق الكنافة.

ناوله لإبراهيم اللبان، ثم طلب في توسل من محمود أن يدق على الطبلة حكاية العنكبوت بخيوطها المنسدلة على فتحة المغارة التي دخل إليها الرسول هربا من الكفار وجماعة أبي لهب ومن قصدوا سفك دمه.

ومع ارتفاع أصـوات ترابيس الأبواب وأرجحة أضـواء فوانيس العيال المشـعة بألوان الزجاج الأحمر والأخضـر والأبيض في رأس المنسـي ومحاولة معالجة أصـابع القدمين المتسلخة، بينما كان المعلم معروف لا يزال منهمكا في البحث عن الطبلة.

باغت زوجته بإشمئناط قائلا:

ـــ ابني أنا يشتغل مسحراتي؟

حاولت جهدها أن تزيل عنه الغضـب، أغرته بفنجان بن يمني، لعل باله يروق ويعتدل مزاجه.

بص في وجهها مليا.. حاول بكل هدوء أن يوضح لها أسباب خوفه على مستقبل الولد.. رمضان يأخذ من عمر العام شهرا واحدا.. ثلاثون يوما تمر مثل السحاب.. بعدما ينصرف الشهر، أيشتغل ابنه بالتسول؟

اللبان لديه عمل يتكسـب من ورائه.. اللبان عمله الأسـاسـي هو السـروح بين الأحياء الشعبية ليبيع الناس اللبن الزبادي، وفي رمضان يعمل مسحراتي.

من كان يتمنى له أن يصبح من شيوخ الأزهر هل سيكون من نصيبه أن يلف على بيوت الناس بالطبلة ويقول: لله يا محسنين؟!

لا يزال المنســي ينفخ في أورام أصــابع قدميه وهو يتابع أباه في بحثه عن الطبلة.. رفع الكنبة.. ألقاها على ظهرها، عثر على وابور جاز بدون كو شة، شبا شب من الجلد، شبشب من القماش، منتوفلي لا يزال محتفظا بوردة صغيرة حمراء على وجهه، كان يحب أن يرى أمه وهى ترتديه في المناسبات السارة، قبقاب من خشب الجميز كبرت قدماه عليه، علبة كاكاو فارغة، مقطف ملئ بزجاجات الخل والماء ورد الفارغة، وأعداد قديمة من مجلة المصور.

بعيدا عن اليأس، فكر لحظة، ليس أمامه سوى عشة الفراخ، اقترب من الزير الفخاري، الزير في ارتفاعه وضــخامته تحوطه حمالة من الحديد في الحوش الواســعة غير المســقوفة، أغراه شكل الزير بمياهه الباردة، دفع الكوز في قلبه، عب منه، شرب، ا ستدار فجأة بعد أن عثر على عيني العفريت أثناء اتجاهها ناحية الطرف الآخر، مشى في اتجاه النظرة.

أخيرا.. اســتخرج الطبلة في كيس من القماش من جوف الفرن، أزال الر ماد ا لذي غطّاها، بقوة الغضــب الذي أعمى بصــيرته، وتنفيســا عن الضــيق الذي كاد أن يخنقه، رفع القدم بعصبية، وأنزلها في سخط على جسد الطبلة، حرص أن يكون التهشيم في إتقانوببطء بطئ.

أصــوات الطقطقة خرجت من بين قدميه أشــبه ما تكون بالأنين الذي يســعى بالدوس عليه لكتم أنفا سه، كانت القدم عندما يرفعها وينزلها تصير مثل مقصلة تفصل رقبة الطبلة عن صدرها، يشعر المنسي بضيق في التنفس وبعطب يشرخ قلبه، لا يستطيع بعد الآن أن يحلق بأجنحة متكسرة.

على ما يبدو أن المعلم معروف كان يفكر في توســيع دائرة العكننة وجرّ الشــكلّ مع زوجته، راح يوجه الكلام إلى ابنه وهو يخمن في تشف:

- مش بعيد.. يمكن بكرة تقول لي:

نفسي أشتغل بياع جرايد.

بلســـان عقرب لدغ قلب زوجه، إذ أن مهنة بائع جرائد -بنظره- تافهة، لا تعادلها في حقارتها ســوى أعمال الســبارســجية من جامعي أعقاب الســجاير، يراهم باســتعلاء في محاولاتهم ا ستخراجها من تحت أحذية رواد المقاهي، حيث كان يسعدهم سماع المزيد من الدعاء لهم بالستر وطول العمر نظير السماح لأقدامهم بالإفراج عن الأعقاب المداسة بالنعال.

الست فضيلة كان يمكنها أن تدلق على اشتعال صوت زوجها برميلا من الغضب، بو سعها أن تفرّج عليه أهالي عطفة السقعان، لكن بكيا ستها وتوا ضعها لا تحب أن يسمع أحد صوتها، فتغاضت عن ما أسمته الإساءة لشخصها ولأخيها أنور بائع الجرائد.

تناولت سيجارة من صندوق سجايرها، على احتكاك عود الثقاب، تناهى إلى سمعها صوت أخيها، رأته يجري بين المشاة في شوارع البلدة وتحت إبطه حافظة الجرائد معلنا آخر الأنباء على صفحات جريدة الأهرام والمصري والمقطم.

ظلت تسحب من أنفاس السيجارة، تملأ الصدر، تنفث الدخان وهى تتابع حركة القدمين اللتين تسحق جسد الطبلة حتى أحالتها إلى حفنة من التراب الأحمر، جعلها الرجل موطئا لقدميه، وإمعانا في إمحاء ذراتها إلى الأبد جاء بكوز الماء، صب منه على التراب، أذابه حتى أصبح مثل الدماء المتسربة إلى شرايين الأرض، بينما كان المنسي في انكماشه يرى ألا سبيل لإنقاذ حياته سوى الهرب من هذا المكان.

(3)

الفصل الثالث

لم يعد له من سـبيل سـوى الهرب، أو التحول الى عفريت يتلقى صـفع المشـاعر دون أوجاع أو ألم.. يرى أن مستقبله يرتبط بما هو بعيد عن العقل.. عزاءه سوف يجد في الهرب حريته.

مشى على الطريق في فرح وحشى مباغت.. سيكون في أجنحة الطيور المحلقة،لن يكون في الحياة الجديدة ما هو أسـوأ على الدوام، بلا يأس يكبح الطموح.. سـيرقص على رفيف أجنحة بعيدا عن الخوف المبهم حتى يرى نفسـه قد صـار رجلا حسـبما أراد له أبوه، ولن يكون "لخمة" إذا صادف نزوة جسدية تبحث عن علاقة مجانية.

أين صاحبة الملاءة الآن؟

لقد بدأ صباحا يمارس فيه الحياة بيقين إنها سهلة وأنه كفرع صغير يخرج من جذورها، لا يسـتطيع الاسـتمرار الا اذا حقق الملامسـة، فهى التي تغنيه وتجعله ينأى عن الحس المضاد الفجائعي.

بلا ا ستثناءات لافتة، لا يسلط الا ضاءة على مواقف في حياته ليحجبها عن اخرى، ففي زمن الكوابح الصادمة، لا ينسى الشوارع الملعونة بأنفاس الكوليرا، ولا ينسى اللعنات التي صبت على رؤوس الغرب الذي زرع في قلب الأمة العربية كيانا صهيونيا، عنصريا، يشب على تمجيد آلة الحرب.

لا يزعم طفولة تليق به، ولا يخترع أباه وأمه، إنه لا يتواطأ ضد الكشف علانية، على الرغم من سعيه الدؤوب للفوز بلقب عفريت، إلا انه لا يزال يواصل الحفر تحت قدميه، بحماس من يصر على عدم التعامل مع الصدفة العشوائية.

لا بد أن يكون هناك عقل بنسبة ما حتى لا يصبح مثل شباك في عطفة السقعان يلطخه الذباب وسعالات الصدور الممزقة التي تنقله باستمرار تحت عمود النور مع أصحابه، في جو يوحي بقصص العجز، وأن الإنسان مهما تعملق فهو ضعيف، لأنه محتقر وأضأل مما كان يتصور في الوجود.

بالقطع، هناك كائنات عملاقة لا يراها بسبب ضعف بصيرته، وقصر بصره.. في الحكايات التي تجري على الألسنة لا يتحقق من رؤية تلك الكائنات، إلا اذا مسته حالة من الرعب، وبدفقة من القشعريرة تسري في بدنه.. بحدقتي المُخيلة يترأى له وجه من تلك الوجوه البشعة.

أما إذا كان ضبط ايقاع الحكاية هادئا فيكون غير قادر على الإيحاء، ولا يحمل ذلك من معنى سوى أن الحكاية لا تعدو أن تكون من القصص الملفقة، ويفضل ألا تعطي الفرصة –بعد ذلك– للشخص الذي ليست في قصصه قوة التأثيروالحكي عن حياة العفاريت.

لا يقتصر الحال على تلك الأمور وحدها، بل لا بد أن يسلم الإنسان في بداية كل حكاية عاينها بنفسه، أو نقلها أحدهم عن جدته بضآلة حجمه وعدم قدرته على الاختراق والنفاذ ليتجمد و ضعه، ويصبح في حالة قريبة الشبه من نظرة الحمار للانسان.. مهما بلغ حجمه، هناك حدود للطاقة.. هناك حمار دائما وانسان.. هناك سقف محدد للنظر والأفكار لمختلف المخلوقات.

أما اذا اضيف الى هذا الواقع الادعاء بأن الحمير يحظون بطاقة هائلة من الصبر والتحمل، ولا نصيب للانسان منها، فإن هذه النظرة –على مستوى الحمير– تؤكد ان الإنسان فشل و سيفشل بعقله المحدود في اكتساب صفة واحدة من صفات العفاريت الخارقة.

هل يعني ذلك أنه توجد هناك عفاريت عاقلة وعفاريت مجنونة، وعفاريت مؤمنة وعفاريت كافرة؟.

ليس لدى المنســي أي مانع ليكون عاقلا أو مجنو نا، ألمهم أن يتحول في النها ية الى عفريت من الجن، طالما أنه صار في واقع الأمر مهانا ولا يحظى بأي قدر يكفل له الحصول على صــفة واحدة من الصــفات التي تكون قادرة على دفع الأذى الذي يقع من أبيه، ويلقاه كل صباح على يد معلمه الشيخ ابراهيم عباده.

فلماذا نال صديقه فكري عارف هذه الصفات مجتمعة في وقت مبكر جدا، عندما حذره أبوه ألف مرة من المشى معه، وقد أطلق عليه صفة بخة العفريت؟.

فكر مليا.. لا يملك فكري بخة العفريت من الشــر مثل أبيه، بالنظر في أعمال أبيه يجده متفوقا في أشــياء كثيرة، حســبه أن يســتخدم إجراء عمليات الحســاب بمهارة.. لديه نظرة قاطعة يمكنه ان يقيس بها ويزن حجم أبي الهول.. يمكنه اســتنباط أي شــعور يغوص في أعماقه بنظرة خاطفة.

ألا يســتحق لقب عفريت عن جدارة، وهو الذي يســتطيع رصــد مســاحة من النجوم المعلقة في الفضاء ووضعها في عدد من الأرقام؟.. سيظل بخة العفريت الى جواره تلميذا في روضة الأطفال.

ناصية عطفة السقعان المتفق أن يلتقي به عندها خالية الا من الوحشة والكآبة.. لا يطيق سياط الانتظار، الانتظار يتلف أعصابه، مع أن بخة العفريت هو الذي حدد الميعاد في تمام السابعة صباحا وهو في طريقه الى المدرسة.

معظم مواعيده غير دقيقة، قد يكون في عدم مجيئه خير له، هذه فرصة لتمجيد اسم الرب الذي أتاح لهأن يمضي في حرية عبر الشوارع الغارقة في كتل من الأبخرة والضباب.

النسوة اللآتي اعتاد ان يراهن مترهلات في ملاءات سوداء، أصبحن في أشكال جديدة.. نحيفات.. يلتهم الضباب أجزاء من أجسادهن.. هو ذاته أ صبح سعيدا لشعوره بأن جزءا من ملامحه توارى وراء كتلة من الضباب الشفيف، وعقب ما تظهر هيئته بالكامل خلال برهة قصيرة، سرعان ما يلتف حوله الضباب فتعطى شابورة الصباح الإحساس بأنها قد تساعد على تشقق الأرض حتى تخرج منها العفاريت.

على شقشقات العصافير صباحا، كان يشبه الطالعين من جب سحيق، يخامره احساس قوي بأن هناك في الشوارع أ شياء جديدة سوف تعلن له عن نفسها لأول مرة، لا شك إنها ستكون أرق وأجمل من وجوه مدرسيه.

حط بذهنه من على أغصان العصافير على الأرض الصلبة، على لسانه جرح غائر ممتلئ بحفنة من الأمل، تمنى ألا يحا سبه الله على سوء الظن بأبيه.. يا رب لا تعطه حسب شرور أفكاره، إذ لا شئ في يده يمكنه من الإسترخاء في دعة وانبساط.. يارب! لولا صوتك الذي يجري علي المياهلما أقدم على الإنسياب والتدفق بين أكتاف المشاه.

في هذه الأوقات لا ينبغي التفكير في بخة العفريت، يكفي أن أصـــحابه، وأولهم حلمي السعيد عبد العال وابراهيم مليكة ورزق الله العجايبي، لا أحد في هؤلاء أصبح يثق به، لأنه قبل أي شئ كاذب وطبيعته كعفريت ان يكون مشهورا بالنفاق والخداع.. إذا صدق في شئ يوما لا يجب أن يقال عليه طيبا، لا.. ســيظل عفريتا لأن الله ســبحانه وتعالى أحاطه—مثل الشياطين– بنزعة من الغرور، والإستعلاء.

الأمر بالنسبة اليه جد مختلف تماما.. القصد من وراء التمكين من أساليب العفرتة، أن يدرأ عنه شرور الآخرين، وأن يتمكن من فعل الخير.

غير أن الأ شياء التي لا يحب أن يتذكرها، عادت بقوة افتراس من يود أن يحتبس روحه في قفص لا يســقفه قمر، ولا ترصــعه النجوم، في مســتهل يوم تســترخى فيه الشــمس على ظهرها في وهن فوق مرتبة محشوة بالبخار.

أصوات احتكاك أقدام المارة بسطح الشارع، أعطته انطباعا بأن هناك –رغم عدم الرؤية جيدا– من يشقون الطريق في عناد واصرار، أما هو فقد صار يشعر بالتعب من تنهيدات القلب.

ألهذه الدرجة لا يستطيع أن يرصد هيئته بكامل التفاصيل؟.. عدم الوصول لمعرفة ملامح وجوههم صار شبه مستحيل، قد يتطلب الأمر بذل المزيد من التحديق وإمعان النظر.

ضباب.. ضباب.. ضباب.

ما يدهش أ نه يرى لأول مرة في حيا ته وجو ها بلا ملامح.. رؤوس ليس فيها آذان للسمع.. الأجزاء السفلى لدى بعضهم لا وجود لها.. أقدام تسير بلا جذوع.. سواعد تمضي بأكتاف لا صدور لها.. ألجزم بعدم الحصول على إنسان مكتمل الملامح –في هذا الوقت– بات مؤكدا.

لا يستطيع المكوث في هذا الجو.. قد يُمكنه الابتعاد من الحصول على صباح باسم الوجه.. المقاهي التي مر بها لا تزال خالية من الزبائن.. الطاولات والكراسي الشاغرة ران عليها الحزن، بدت كأنما توبخ الطقس الذي خلع على لمعانه الإنطفاء.

خال نفسه مثل أحد الكراسي في حاجة لمن يجلس إليه.. إنه وحده مثل كرسي خال، بلا عقل.. من يستمع إليه حينما يطلق عصافيره على حبال صوتية؟.. يريد أحيانا أن يغني.. لايستبعد أن تلاقح بذور القرنفل أحشاء الشوارع، وأان يلدغ النحل بشوكة مثل وخز الإبر النسمات التي غافلت من بدأوا يأخذون أماكنهم حول الطاولات، وتسربت بالدخول في عبهم وهو يشربون السحلب.

شهوة القلب للتفتح، تعطيه ألوانا من زهرات فواحة، ينثرها الله على وجوه كل شئ يحبه.. يمضي وراء الظل المنكسر والظل المستطيل.. يجثو على ركبتيه، ينهض بسرعة قبل أن تراه الفتيات اللآتي لا يصفهن بالجميلات إلا اذا ظهرت في عقدهن هيلدا أخت صاحبه ابراهيم مليكة.. يتمنى أن تراه دائما كانسان وليس كدودة محتقرة من أبيه.

في سماحة ترتدي غلالة الصباح الشفيفة، ذكرته رنات جرس كنيسة الروم الكاثوليك بيوم الأحد.. في منتصف شارع السكة الجديدة صدحت أجراس كنيسة الملاك الأرثوذكسية، دقات الأجراس تدعو الأتقياء: «**سبحوه بأوتار ومزمار**»(1).

(1) المزمور المائة والخمسين.

هو ذاته قام مبكرا لتعظيم الله، أسبغ على أعضائه أكوازا من مياه الزير، أدى صلاة الفجر وأبيه نائم، قرأ سورة الرحمن ثم سورة يا سين عملا بنصيحة أبيه.. الرحمن للتذكير بان كل شيء ما خلا الله باطل، ولا دائم إلا وجه الكريم، وياسين تتلى لإعلاء كلمة الحق وازهاق الباطل « **إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**».

صاحب قراءاته نداءات بائعات اللبن وهن قادمات في ملابسهن الملونة على ظهور الحمير، نهضت الست فضيلة في ألتو، أخفت انبساطها بطريقة أداء ابنها وهو يحرك الرأس بالصدر يمينا و شمالا على عادة كبار المقرئين، ثم أدارت له ظهرها وهى تضع وعاء اللبن على كوشة وابور الجاز.

ظهور البنت هيلدا قدامه أنساه دعاء أمه له بالنجاح حين كان يأخذ سمته بجدية صوب المدرسة.. كادت شرايين قلبه أن تنفجر.. أيعقل أن يحمل انحرافه عن الطريق على كتف فتاة لا ذنب لها إلا انها كانت تذهب كل صباح يوم الأحد الى كنيسة الملاك للصلاة؟.

السؤال الذي يجلب عليه العكننة لا يحب أن يطل عليه برأسه.. إزاء الرغبة في معرفة الطريقة التي تؤدي بها تلك الفتيات صلاتهن، قرر أن بقتفي أثرهن.. هو يركع.. يسجد لله في خشوع وتعظيم، يطلب اليه أن يطيل عمر أمه.. لا مانع لديه لأن يتلقي موعظة القسيس بقلب خاشع،

وإن كان يقطع بأنه لن يبتعد عن التفكير في خوف من الإ صطدام بأ سئلة قد تنغص عليه أوقاته: ما الذي جعله ينقلب على نفسه كمن لا ارادة له ويخون رجاء أمه فيه، وينحرف عن طريق المدرسة؟.

هذا النوع من الأسـئلة يعرقل الرغبة الجامحة ولا يجعلها تأخذ نصـيبها من المعرفة.. أمه تريد.. أبوه يريد، ولماذا هو لا يريد.. الأسئلة التي تجر عليه النكد بإحياء يقظة الضمير والإنصـياع لرغبات الأمومة والأبوة، عليه ان يحدفها –مؤقتا– في مسـتودعات النفس، لا لشئ إلا ليستريح من التوبيخ والتبكيت ولكي لا يسخط على نفسه ويجعل الحق بجانبه، سارع في استخراج صور بشعة من الذاكرة، للمدرسة ومدرسيها.

حسـبه أنها جعلته لا يفكر في نفسـه، بنفسـه، إنما هم يريدون أن يزرعونه، ويتعهدونه برعايتهم المزعومة.. من الأفضـل أن يسـتجيب لمغناطسـية الإنجذاب الروحي للوجوه الجميلة، إنه وراء أسـباب انفجار الرغبات المباغتة، ولا عليه سـوى أن يدعها تعمل في كيانه، ولا يجشم نفسه هموم الخضوع بجهامة الأسئلة المثبطة.

فقط..عليه أن ينسـى أمه وابيه حتى ينفلت القلب من الرضـوخ للكوابح التي تعرقل خطواته.. سيخسر الكثير إذا عمل بنصيحة أبيه: لا تحط عينيك إلا على ما تراه مفيدا لك.

ما أجمل ان يرى الإنسـان بعينيه هو.. لديه عينين ولسـان و قدمين يمكنه ان يحكم خطواتهما.. في فراغات تدير الرأس وتحثه على إعتلاء سـور حديقة شـجرة الدر.. هناك يشاهد.. يتابع، لا مانع لديه أن يمد يد المساعدة للمشعلجي حين يظهر على نا صية عطفة السقعان قبيل انحدار قرص الشمس وراء أفق الغروب، ليشعل المصباح.

لا ينتظر المشـعلجي من يحيه أو من يرمي عليه سـلام المحبة، لأنه اعتاد أن يهبط على سـلم خشـبي كان يرفعه على كتفه، ثم يمضـي في انكماش، ويظل ينكمش وينكمش حتى يتوارى فيعتصر قلب المنسي آلما له.

يتذكر وهو يجلس وسط حلقة أصحابه تحت عمود النور في شارع سيتي، يقزقز معهم اللب.. من عنده حكاية يرويها.. هم يحكون وفي معظم الأحيان هو يسـتمع، ويتابع حركة الفتيات وهن يدلفن الى وراء البوابة العتيقة.

هذه المرة الأولى التي يشاهد فيها يسوع بن مريم البتول محفورا بهيئته على خشب بوابة كنيسة الملاك وهو يبارك (أعمال الناظر الأ سافل في السموات وفي الأرض) ودونما روية وتفكير، وجد روحه في خفة نسـمة تحمله وراء الفتيات خفيفا، مثل الظلال التي لا تترك خلفها بصمة سوداء.

توقع أن يتصــدى له من يأمر بطرده.. أعد ســلفا بعض الردود المناســبة، وإن كان على وجه التحديد لا يعرف أيها المقنع وأيها غير صحيح.

الو ضع داخل الكنيسة كان بالنسبة له غير مألوف.. عدد من الدكك الخشبية، ترا صت في صــفوف ناحية اليمين وناحية الشــمال.. من جلســوا هناك كانوا مســتغرقين في التلاوة الإنجيلية.. في الصــدارة يقف القســيس يدعو في ابتهال، يحرك بيده مبخرة تتصــاعد منها خيوط كثيفة من البخور.

بقوة المعين وغفار الذنوب، خرجت من بين شـفتيه كلمة رددها الشـمامسـة على ايقاع الصــناجات، لحظتها تجلت الآية.. هلل الجميع في فرح واســتبشــار: المســيح قام من الأموات وداس الموت بالموت.

في ذلك الوقت المبكر جدا، كان صندوق عربة القمامة التي يجرها حصان استرالي بليد الخطوات، يخرج من حلق بوابة درب الخوخة بصــندوق خشــبي تتدلى من حافته رؤوس وأيادي وأقدام لرجال وأطفال ونساء أهلكهم وباء الكوليرا.

كان الذين ينتظرهم الموت، يسددون سهاما من عيونهم الى قفاه، شعر برشقات تصوب الى ظهره وهو جالس على طراف إحدى الدكك.. لا يعرف من هم، وانهم بلا شــك يودون أن يعرفوا من هو.

يتســاءلون من هو؟.. وهو يســأل من هم؟.. لاأحد يمكنه أن يجيب على ذلك بشــكل قاطع.

تغاضــى عن الســهام المغمدة في ظهره.. تحصــن ضــد الآمها بالتحديق في ســقف الكنيسة.. صور كثيرة لملائكة بأجنحة بيضاء، لأول مرة في حياته يرى صورا للملائكة.. نظرات الرحمة المشعة من هاتيك العيون، جعلته يصبر على تحمل الام السهام التي لا تزال تخترم ظهره، ليس أمامه للهرب من المحنة التي سببها لنفسه سوى أن يحتمي بالاستغراق في النظر الى إيقونات تطل عليه بأشكالها المختلفة من كل جانب.

ألن يقف الله إلى جانب ولد ذهب إلى الكنيســة بقبقاب خشــبي؟.. هل يوجد في تاريخ الكنيسة من ذهب إليها بقبقاب خشبي وطربوش كالح اللون على رأسه؟.

دائما يضعه أبوه في مواقف حرجة تنال منه ومن شخصيته.. منذ حوالي إ سبوعين أخذ الحذاء ليضعه في قالب مخصوص لتوسيع الأحذية.. لقد نشف ريق أمه من كثرة السؤال.. كان يجيب:

ـــ اطمئني.. كل ما الجزمة تقعد في القالب

مدة أطول توسع أطول.

ومن قلب يناجي ربه وروح حائرة.. ألا يمكن أن تكون نبرة صوته قوية ومسموعة؟.

لن ينسى من كانوا هناك يراقبون ذلك القادم من أقصى المكان بلون ممتقع، تسبق خطواته طرقعة القبقاب على البلاط.. أصوات الطرقعة أهاجت مشاعر من كانت أرواحهم تحلق في سموات التلاوة.. لحظة، استرخت السواعد بالإنجيل على الصدور.

بذل المزيد من الجهد حتى ينقذ خطواته المدوية من الفضائح.. دفع القدم الي الأمام في خ فة.. هبط بها على م هل.. تحو لت الخطوات الى حفيف، جلس على طرف أول د كة صادفته، خلع الطربوش عن رأسه، دسه في الحقيبة القماش، لا يعرف وجه الذي صاح من الأعماق:

ــــ يارب موسى وعيسى ومحمد!

ــــ ماذا تريد؟

قال دون ان يبص في وجه من سأله:

ــــ أريد صديقي ابراهيم مليكه.

غطى المرتلون بأصـواتهم على إجابته، انشـغلوا عنه بالتطلع الى عمود من الضـوء كان ينسـاب في تدفق من كوة قريبة من أجنحة الملائكة، انتهز فرصـة غيابهم عنه انسـحب في صمت ناحية شرفة كانت مفتوحة في شكل مستدير على صحن واسع، طالع في منتصفه تمثالا للعذراء برأس يميل قليلا جهة اليسار.

لا يعرف لماذا عندما وقف أمامها راح يبكي؟.

لا يريد أن يزعم بأنه تذكر أمه، ولا تلك العربة التي يجرها حصـان استرالي بليد الخطوات، وهى محملة بجثث موتى الكوليرا، كل ما يسـتطيع قوله، انه بوداعة الحملان المقهورة، راح يدين تصرفاته.

لماذا لم يقل الحقيقة وأنه جاء متعقبا هيلدا؟.. لا يريد أن يسـقط معه شـئ أحبه مع الشعور بالإثم، لأن تذكر الإثم أفدح من الإثم ذاته، فعلى أي لون يكون مذاق حياته إذا كان يعيش على الذكريات والتفكير؟! ربما يساعده الدوران في شـرفة العذراء على التخلص من موبقاته.

هناك طالع كتابا مرفوعا على لوح خشـبي.. قرأ: عندما أتامل أعمال نفسـي الآثمة، يحفزني شـعور جامح لأن أعيش حياة مختلفة.. إنه فعل ذلك بنفسـه، عندما قام في الليل.. أدي صلاة الفجر.. شرب كوبا من اللبن، أخذ من أمه نصف فرنك مصروفه اليومي،

على الرغم من تحذير ابيه لها ألا تعطيه –من ورائه– قرشا واحدا، لأن كثرة الفلوس في أيدي الأولاد تفسد أخلاقهم.

لكنه عندما سلك طريق الغوايةوالإنحراف، لم يكن لمصروفه اليومي دخل في عدم الذهاب الى المدرسة، ثم زعم لنفسه بانه سيفعل كل ما يعتقد أنه الصواب والصدق حتى لا يرمى بالعفرتة.

قبل أن يعيد النظر في تفكيره أراد أن يحسم الأمر بعدم التردد، يخشى أن يسلبه التردد طعم حلاوة التجربة، حتى لو هبت الرياح في غير أوقاتها الموسمية، لا ييتئس، هى لحصاد الأرض في أفق مرصع بالنخيل.. هى لإقتلاع أرواح من تلفت عقولهم، ومن ماتوا بوباء الكوليرا، ومن كان يمشي وحده وراء عربتهم الى المقابر.

أليست الريح في باكورة صباح شتوي هى نفحة بسيطة من نفحات الرحمن؟.. تهب لتبدد الضباب الكثيف من حواليه، ولتضع بمقليتها على كتفيه معطفا من خيوط الأمطار؟.. أليست هى الريح التي غذت قلب هيلدا بالمشاعر الطيبة وجعلت يدها تلوح له من بينأكتاف المصلين؟.. حين شعرت بأن تصرفاتها ستكون لافتة ومثيرة للظنون، أدارت له ظهرها وهى تبتسم.

عرف من الإبتسامةأنها تريد أن تتكلم إليه.. ألود المتصل ببريق العيون دفعه لإقصاء الآمه النفسية عن طريقها، ما دام هو يحب فما ينبغي أن ينشر جراحه على صدرها، من الأفضل أن يدع الصدر بعيدا عن الأدران ليكون سجادة طاهرة لصلاته.

اللهم ضع في فمه جوهرة، واجر على لسانه دعوة مستجابة.. لقد سبقه القسيس في استمطار الرحمة على الجميع.. قال في ضراعة وتوسل:

ـــ طوبى للمعذبين في الأرض.

ثم تلاشى بجسده خلف كثافة البخور، مثلما اختفت هيلدا فجاة.. لم يرها الا أثناء خروجها من بوابة المسيح بين صويحباتها.

على الطريق، صدمه العقلاء بخطواتهم المتزنة، يمضون في استياء منه ومن صوت فرقعات ذلك القبقاب اللعين، غير أن هيلدا كانت تختلف عنهم، خاصة في مشاعر السكينة التي تضفي عليها حالة من الحنان لكل شئ تتصل به، أو تلمسه بعينيها.

حين دفعت باب البيت الخارجي، استقبلها الكلب "ركس" قصير الذيل.. كثيف الشعر، نط "ركس" على صدرها معلنا عن سروره لرؤيتها.. لم تحرمه من عطفها بعد أن دس بوزه بين نهديها، كأنه كان يبحث عن الحنان.

(4)

الفصل الرابع

يستغرقها –في معظم الأوقات– الرضى على كل أمر تقدم عليه.. تعيش حالة خاصة بعيدا عن التزين بأجنحة مزيفة، يبلغ بها الطموح أن تظل شعلة تضيء لمن يخرجون من أحشاء الأمهات، حتى ينتصبوا واقفين في وجه الظلام، دونما ترنح، أو قنوط، بيدين لا تتراخى عن إحاطة من تتهددهم القسوة، في حنو، ولا تني عن تطويع يديها لإيقاع الكون، ألمليئ بالغبطة، انتصارا على الموت الذي لا ينقطع في كل لحظة.

شافت –دون استعلاء أو ترفع– أن وضعها الاجتماعي، جعل كل ما كانت تتعامل معهم يلقبونها: الدكتورة، وفي تواضع، لا تزعم سوى أنها مولدة قانونية، حصلت على شهادة التوليد من المستوصف الحكومي عام 1925، ثم سلموها دفتر طبع على صفحاته خاتم المملكة المصرية، لتة

لسمعتها الطيبة، صار عملها يدر عليها دخلا يقترب من مداخيل دكاترة الولادة وأمراض النساء المتخصصين.. غير أن ما تكسبه كانت تنفقه على مصاريف البيت، بحيث كان المعلم معروف لا يشعر بالعسر، بل وكان وضعه الأسري يعطيه نوع من الصلف، وبما يجعله معتدا بنفسه في مواجهة أصحاب مصانع الصابون الذين يزعم بأنه فشل حتى الآن في إيجاد مزيل ينظف أياديهم من الاستغلال.

اعتبرت الست فضيلة أن هذا شأن زوجها، كانت تزعم بأن ليس لديها الوقت الكافي لكي ترهقه بالسؤال، وتلزمه بأن يتحمل معها مصاعب الحياة.. ربما لأنها لا تحب أن يخرجها أحد من غمرة السعادة التي تعيشها عندما ترى الوليد وتتلقفه بين يديها، وهو يطل عليها برأسه من رحم أمه.

الشعور بأنها كانت تستقبل المواليد من ظلمات العدم إلى زمن من العمر القصير، جعلها تنسى في بعض الأوقات أن لها بيتا وزوجا وإبنا، تفاجؤها بطون النساء بالخارج من العدم، نحو حياة جديدة،ينتظرها موت أكيد، يجعلها لا تني عن تلقي صرخات أوجاع الولادة، كانها تعاني مخاض الآم المرأة الحامل، ولا تستريح إلا بعد أن يصير المولود بين يديها.

كانت تمضي في الطرقات بصدر منشرح.. تسير بين الأولاد الذين قدموا إلى الحياة، في بعض الأوقات تشعر بأنها التي انجبتهم مثل إبنها الذي تركته هناك ليلقي مصيره على يد زوج يوقف حياته، ومستقبله على التمرد والسخط بلا توقف، وهو يزعم أنه يسعى لا ستخراج سنابل جديدة، تمثلت لعينيه في إبنه المنسي من روث المجتمع، دون أن يأخذ في اعتباره منطق الضرورة، بحيث لا يسمح لنفسه أن يميل مع أشرعة الحياة

حتى تتبدد السحب، بل مصرا على التصادم ومشاغبة من يعتقد أنهم يستغلونه لدرجة صار فيها لا يرى ابنه، وهو يمشي إلى جواره في عرج مختنقا من ضغط المعاناة النفسية التي يرى أنها لا تتناغم مع الصور الحية، المنعكسة على مرآة نفسه.

في كل ما يذهب إليه، كان يعتقد أنه يقوم بتربيته على الأخلاق الحميدة حين يحثه على عدم المشي مع بخة العفريت حتى لا يفسد روحه، وأن يجلس في الأوقات التي تغيب فيها أمه عن البيت، ليهتم بكنس عشة الفراخ ورشها بسائل الفنيك، ثم ينظف أواني الفراخ الفخارية ويملأها بالأذرة والمياه، بعد ذلك يرتب الغرفة التي سوف يستقبل فيها أبوه أصدقاءه، ليدخنوا الحشيش.

فتحو سيرة العفاريت.. من على عتبة الباب أتاهم صوت منصور النجار، زاعما بأنه لا يوجد في الدنيا عفريت سوى ابن آدم.

ما كان ليتوقع ان يثير كلامه السعيد أفندي عبد الشافى، حمل اعترا ضه حججا تستند في تأكيدها على ما تضمنته قصص عفاريت النبي سليمان كما جاء ذكرها في القرأن الكريم.

بادره المعلم معروف مرحبا، لكنه اعتذر عن الدخول، وهو قابض بيديه على جدون العجلة، حتى جاء ابنه حلمي.... فحطه عليها وغادر العطفة، وفي أذياله مشى منصور النجار لحضور إجتماع له في الحزب.

ساد المكان صمت كئيب، اجتهد المعلم معروف في بذل الجهد حتى يعيد فتح أبواب الكلام حول العفاريت، من حيث لا يتوقع المنسـي نادى عليه أبوه.. اعتاد عندما يطلبه أن يكون خلال رمشة عين ماثلا بين يديه.. طار في سرعة اعتبرها تفوق سرعة العفريت آصف بن باروخيا الذي عمل مدة طويلة تحت إمرة الملك سـليمان، ونقل إلبه خلالها الملكة بلقيس وعرشها من اليمن.

أخذ المسـافة الواقعة بين عشـة الفراخ ومكان أبيه في خطوة واحدة.. انتظر أن يطريه أو يشـجعه على اسـتجابنه السـريعة، وبما أن ذلك لم يحدث أبدا من أبيه، فقد أخذت ملامحه من أشكال العفاريت ما جعل فرائصه ترتعد فرقا عندما سمعه ينادي:

- يا ولـد.

- نعم.

- أنت حفظت سورة النمل اللي فيها

عفاريت الملك سليمان؟

قبل أن يجيب بكلمة نعم، كان الله فتح عليه باب القراءة بغير قلقلة أو تلعثم، اســتعاذ بالله بداية من الشيطان الرجيم، انثالت على لسانه القصص الخاصة بالنمل والهدهد، والنبي ســليمان، والعفاريت، والملكة بلقيس حتى وصـــل إلى الأية التي قدم فيها العفاريت عروضهم بشأن نقل قصر الملكة بين يدي الملك سليمان: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾.

العفريت الذي حصل على علم من عند الله، حاز على إعجاب ضيوف المعلم معروف.. نسوا للحظات أنهم قدموا أساسا لتدخين الحشيش، تكلموا عن صنائع الله، وكيف يؤتي الحكمة لمن يشاء...

توقفوا عن إملاء النصــائح على الرجل المكلف بإشــعال النار في القوالح.. ابتعدوا عن أخذه بالشدة حتى يسلّك قلب الجوزة بسلك رفيع ملتو.

الرجل مطيع.. كل أمر منهم كان يقابله بكلمة: حاضــر، الرجل صــاحب مزاج.. لا يستطيع شراء ثُمن قرش من الحشيش، درايته القديمة بإصلاح أنفاس الجوزة، تسليك الغابة الخضــراء، توزيع فتافيت النار على رأس الحجر المعمّر بقطع المزاج، مقابل عدة أنفاس يشربها معهم، عقب أن يسحبها أحدهم بالشفط من بين شفتيه، يقول له:

- نفض على الحجر.. مخمخ وكيّف نفسك.

- أحسنت التلاوة يا شيخ منسي.

أول تقدير في حياته يناله من الشيخ فخر الدين خطيب جامع حسين بك،' ثمأدار وجهه متأملا ملامح من أعتلت وجوههم أمارات الإعجاب الذي حظى به العفاريت العاملين كجنود في خدمة مملكة النبي سليمان.

اعتبر أن الخشـــية من الله هى التي تدفعه للحديث حتى لا يختلط الأمر على من جلس بينهم، فذكروا العفاريت بخير، وتغافلوا عن ذكر الله الذي أنطق كل شــئ، وأعطى لما دون الإنسان فضلا وعلما:

- إن العبد إذا ذكر الله تعالى ألبسه خِلقة

القبول والرضى وأكساه واعطاه وسخّر

له الدواب والأنعام وأقبل بالدنيا عليه

ودرّ رزقه إليه.

أما بخصوص سليمان الحكيم فقد

أفاض الله عليه من بحور الكلام جوهر

النثر ودّر الشعر، وعلمه الدخول في معاني

حروف الإنس والجان، وقراءة الورق

الأخضر على فروع الأشجار، فلتكونوا

ذاكرين لله أولا، ثم كونوا محسنيِ الظن

بمن مدحه القرآن.

عادة، بعد أن يفرغ الشـيخ من حديثه، كان يبادر بإخراجقنينة عطر الزهر، وقنينة عطر اليا سمين.. يأخذ منهما على طرف سبابته، كأنها فر شاة رفيعة، ناعمة، ويهتم بتمريرها على شوارب الجالسين ولحاهم.

حينما يبلغ أوج الانسجام والجوزة تدور بينهم، يصبح في منتهى السخاء، لا يبخل على أحد بإعطائه لحسة على طرف لسانه من حق العنبر الذي كان لا يفارق جيب قفطانه.

كانت الأشداق تتسع بشكل مخيف أثناء توزيع الشيخ اللحسات على أطراف ألألسنة.. تنفتح ألأفواه كأنها أوجار الثعالب، وكانت هناك أفواه تستطيل ألسنتها كأنها ثعابين تحاول أن تلقف اليد الممتدة إليها، لتقضــمها في نهم وشــراهة، وتمتص بقايا العنبر التي علقت بالإصبع.

في بعض الأوقات كان يرين على المكان صــمت لا تســمع خلاله إلا أصــوات كركرة الجوزة.. تتحول الأصــوات في رأس الشــيخ إلى إيقاع ينســجم مع أذكار يلهج بها قلبه، وتجعله رقيق الحاشية، عطوفا، لا يحب أن يستأثر بالمتعة وحده، وسرعان ما يقوم بتوزيع المعجونات المخدرة حتى تنفتح شهية الرجال للنكاح، وتنشط أعضاء ذكورتهم.

كانت هذه المجاملات لا تثير المنسى، ولا يحب مشاهدتها، إنما هو مهتم بالا ستماع لمزيد من حكايات العفريت الذي شال بين يديه ق صر ملكة سبأ، وقام بو ضعه مثل طبق مســتدير على أرض عرش ســليمان المموهة بالقوارير، بينما كانت بلقيس تعتقد أثناء صعودها إلى سرير الملك أنها تخب بقدميها بين لجج المياه، فرفعت ثوبها إلى أعلى حتى لا يبتل ذيله.

هذه الصــورة القرآنية أعجبت بالفعل الشــيخ فخر الدين.. حاول أكثر من مرة أن يلفت نظر الحضور إلى بلاغة التصوير القرآني القائم على الرمز والحركة والمجاز.

راعى أن يكون الحديث بعيدا عن التقعر والغموض، حتى يتسنى له نقل الصورة في وضوح الى إفهام من جمعته الظروف بهم في منزل المعلم معروف، وفيهم عامل بوزارة الري، وشيال كان ينتظر القادمين من السفر على رصيف محطة السكة الحديدية.

لكي لا يرمي بعدم الاتزان، سحب نفسا طويلا من غابة الجوزة، قال أنه لا يود أن يصاب بالسطل في وقت مبكر، ولا يريد أن يرغمه شئ للتخلي عن وقاره.

رغم ذلك، كان لسانه ينفلت منه وتغلب عليه سمة أولاد البلد بخفة الدم، وبحيث يستطيع أي هلفوت أن يدخل معه في قافية تحيل المكان الى جو من الضجيج، والضحك، والمسخرة.

إزاء من عميت عيونهم عن صور ومعاني آية : ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ زعم الشيخ أنه يستعمل في شرحها لغة أولي الأباب، ثم عاد ليقول في تواضع إنه سيفك طلاسيمها بالإيماء بالرأس، بغمزات العينين، برفع الحاجبين إلى أعلى، بإسقاط حاجب إلى أسفل، مع رفع الحاجب الآخر إلى أعلى، وكلها حركات في قوة اللغة القديمة، عساهم يفهمون أن الغرض من وراء ما جرى في القصر الملكي، يكمن في رغبة الملك الشاعر الحكيم أن يكشف عن مدى جمال ساقي الملكة قبل أن يدخل عليها وتصبح زوجة له.

فكر المعلم معروف أن يعبر للشـيخ عن عميق امتنا نه، حاول أن يهيب واقفا ليقبل عمامة الشيخ، كان يشخص اليها لا على اعتبار أنها غطاء للرأس، لكنها الوعاء الذي يحتوي علوم الدين، وتحتها جيوش وجنود وملوك ورؤساء يسـرقون أقوات الناس، وفيها الجبل الذي ا شتهاه الرب ليهبط عليه نور وجهه، وفيها عيسى ومو سى وفرعون وقصور لا مثيل لها.

حاول أن يقف على قدميه، غير أنه شـعر بالخدر يسـري في جسـده، فاكتفى بالهمس في شبه استفسار:

- يظهر إنه كان على دراية بالحريم.

عدل الشيخ العمامة على رأسه، وكأنه كان بصدد إصدار فتوى:

- ما وصل إلينا من أمره، أنه كان لديه

نعاجا كثيرة، فيهن من السبايا،وفيهن من

أعطين له على سبيل الهدايا، وفيهن...

ثم ترجرج لغلوغ عنقه المنتفخ بالدهن من شدة الضحك، وقام وقعد عدة مرات، وهو مهتم بالنظر إلى كتفيه العريضين، وصدره المتسع، وإلى نظافة الجبة والقفطان اللتين بدتا له كأنهما خارجتان للتو من عند المكوجي.

ثم أطرى كل من يشرب الحشيشة الصفراء والخضراء لأنهم لا يزنون، ولعن الانجليز لأنهم يشربون الخمر ويزنون وقد رآهم يصاحبون نساء الكرخانات.

وكان يقول الشعر في الحشيش، وقد حط عينه على النار حين بدأت تشتعل في قلاوح الأذرة، وبالعين الأخرى كان يتابع حركة العجوز أثناء قيامه بضبط مياه الجوزة وتسليكها:

هات إ سقيني خضراء يا عم حمزة أو كافورية حمراء تسعد مهجتي لعلني أحفر حرفا من الكلام وهمزة على ألف وباء ينشدان أبوتي.

وعرف عنه انه من أصحاب النكتة المليحة التي تعبر عن المفارقة بين وضعين، أو تعري شخصا يدعي غير ما يبطن، كان الحشاشون يروق لهم أن يستعيدونها، بنفس قوة إنفجار أول ضحكة.

وحينما عادوا مرة أخرى للحديث عن الشياطين والعفاريت انفتحت جوارح المنسي لعله يتعلم منهم شيئا، وهو جالس بالقرب من ضلفة الباب الخارجي.

اتفق الجميع بأنهم يعيشـــون بين الناس بملامح آدمية، و أن فيهم المســـلم والكافر، أما الشياطين على اختلاف صفاتهم فلا يوجد بينهم شيطان مسلم واحد، كل الشياطين كفار، يدو سون على القرآن بأقدامهم يحاربون دعوة النبي محمد صلى الله عليه و سلم، يمشون في الأســـواق، يبيعون، يطففون الميزان، يجلســـون في المقاهي، يخرج من بينهم من يحكمون أمما و شعوبا، وفيهم من ينامون إلى جوارهم على الأ سرة، ويتزوجون بعـ ضا من نـ سائهم، وينسلون منهم ذرية ضعفاء، يفسدون في الأرض.

عامل البناء، الذي كلما شـــاف المنســـي في قهوة مصـــطفى عوض، وكان يســـأل في استعباط: ابن من البعرور دا؟.. قال للشيخ فخر الدين أنه يعرف امرأة من هذا النوع، وذكر إسمها في همس.

عقب على كلامه العامل في وزارة الري الذي كان كلما ســـحب نفســـا طويلا من غابة الجوزة، عمل على احتباســـه داخل صـــدره لعدة لحظات، قبل أن يلفظه من أنفه ولم يســـمع المنسي صوته في وضوح:

ـ ما فيش أحسن من المخمخة..

إسحب النفس واحبس.

لم يكفوا عن تدخين الحشيش إلا بعد أن عاد منصور النجار بعمامة من الشاش، ملوثة بالدماء، تلتف حول رأسه.

قال لنفسة وهو يدير النظر في وجوههم: لايزال الشيخ الذي يفترض أن يكون مبجلا – لمركزه الديني– يتصدر المجلس، في بيت رجل تعيله إمرأة.

عرفوا أ نه عاد للتو من مظاهرة الطلبة والعمال، وأن البوليس طارد المتظاهرين بالرصاص والعصي، وحين سألوه عن آخر الأخبار، فوجئوا به يسب جلالة الملك بما لا يمكن أن ينشر في صحيفة أو كتاب.

تدخل المعلم معروف لتهدئته، وحين اشتم رائحة الخمر تفوح من فمه، صار على يقين بأنه مر –أثناء عودته– على خمارة سلفاجو.

وتصادف أن كان المقدس مليكة يمضي على حماره من أمام ناصية عطفة السقعان.. استوقفه منصور النجار داعيا إياه للإنضام إلى الحزب، وكان يلوح بورقة أمام عينيه، قال أنها البرنامج الذي سيحرر الشعب من الإستعمار وحكومات البلاط الملكي الفاسدة.

ابتسم المقدس في وجهه، وهو يحث الحمار على المشي، ولبث يفكر في شارع سيتي: من يريد خلاص الرب لا يأخذ بنصائح السكير، الجربوع.. الرب متكلي، عليه يستند.

لم ييأس منصور النجار، اعترض بابتسامة عريضة طريق السعيد أفندي عبد الشافي، رآه في منتصف العطفة يقبض بيده على جدون العجلة.. عرض عليه بطاقة عضوية الحزب.. اعتذر الرجل بأنه ليس لديه وقت للحزب، إذ منذ صباح أمس وهو تائه في شوارع البلدة، دون أن يوفق في العثور على أصحاب الرسائل التي اكتظت بها حقيبته البريدية.

فعاد منصور النجار غارقا في الفشل ، بالقرب من عتبة بيت المعلم معروف راح من جديد يلعن الملك، وكان المنسي يتابعه في ذهابه ومجيئه وهو يحمد الله لعدم وجود أمه في البيت، إذ لو كانت سمعت لما تراخت في الانحناء على المنتوفلي ونزلت به على وجهه.

ومع ذلك قال أنه سيظل يحب منصور النجار لأنه الشخص الوحيد الذي يتمنى أن يتعلم الجرأة والصدق منه.. صراحة، يكفي أن يقول رأيه في من يحب ويكره.

حين يكون في كامل الوعي، وحين يكون سكرانا كما يزعم أبيه لضيوفه.

كان الجميع على أهبة الذهاب، إذ بعد أن نفد الحشيش صار الكلام ما سخا، أصبحت القعدة باهته لا طعم ولا لزوم لها.

الشـيخ فخر الدين – بخبراته الواسـعة- كان يعمل لمثل هذه اللحظات المعتمة ألف حسـاب، وهم ينتظرونه على مضـض عند الباب من الداخل، حيث كان يجري النظرات الأخيرة على العمامة وعلى المركوب.. اطمأن.. كل شـئ على جسـده بدا منسـقا وغير مكرمش.

حين ذاك، بدأ يسـوق إليهم ما يحبون أن يختموا به سـهرتهم بعيدا عن العبوس أو التجهم.

ضمّن نكتته في حكاية طريفة.

قال:

ـ دفع الخفراء رجلا كان يدخّن الحشيش

أمام القاضي.. سأله القاضي: انت كنت

بتدخن الحشيش؟

رد الحشاش:

ـ لأ، وشرف جنابك.

- ما دمت حلفت بشرف جنابي،

تبقى صادق، ولكن قل لي

بذمتك أنت ناوي تعمل إيه بعد

ما تخرج من هنا؟

أجاب الحشاش:

- ها أبعت أشتري جوزه من

الهند ومركب مليان فحم.

قال القاضي:

- حكمت المحكمة بحبس المتهم

ثلاثة شهور مع الشغل والنفاذ.

قال الحشاش وهو غير مصدق:

ـ مش كتير دول يا باشا.

رد القاضي قائلا:

ـ لا، أبدا أصل أنا عملت حسابي

على بال ما تيجي المركب من الهند.

(5)

الفصل الخامس

ليس أمامه سوى خيار واحد من خيارين للخروج من مرارة العيش في كنف أب لا يقدّر مشاعره.. الهرب من تلك الحياة، أو أن يتحول الى عفريت، وهو على أي حال من الأحوال سيجد نفسه مضطرا للإستعانة بصديقه فكري بخة العفريت.

كانت له خصائل تميزه عمن سواه، حاسة الشم لديه قوية، يمكنه التنبؤ أو توقع شئ ما سـيحدث، يطالع بسـهولة في ملامح الوجوه.. تحذيرات الأباء من اللعب معه، يتمنى أن تتاح له فرصة الانتقام من المعلم معروف الذي كان أول من أطلق عليه: بخة العفريت.

لكنه فشـل في فرض القيود على ابنه، ولم يسـتطع أن يمنعه من مصـاحبته، ولكي يُفشـل خطط الأباء، أعاد بسرعة فائقة ر سم تقاطيع وجهه، على مستوى السلوك الشخصي، كف عن عمليات خطف السندويتشات من أيدي أصحابه.. ترفع عن أسلوب الا ستجداء.. أما إذا تفضـل أحدهم عليه بشـئ أخذه باليد الى الفم مباشـرة، وهو يلعن –في سـره– أباءهم وجدودهم الذين علموهم الأنانية والبخل.

كان المنسي أثناء بحثه عنه، لا يعرف إلى أين يذهب صديقه في التفكير، وهل انتهى من وضع الخطط حتى يوقع احدهم في فخاخة؟.

أول ما إلتقاه، عرض عليه الذهاب إلى مزرعة الدكتور سعد بطرس، المكان باخضراره وخرافه ونورج درس الغلال يفجر فيه الأ شواق لافآق تنفتح على الزهور البرية حتى تمتلئ رئتيه برائحة الزعتر وأعواد النعناع النابتة في إخضرار على حافتي الترعة.

المزرعة.. عبارة عن بساط أخضر.. في وسطه بيت ذو واجهة هندسية جميلة.. فيها شرفة.. تطل من الدور الثاني على مساحات مزروعة بأشجار المانجو والخوخ والنخيل.

لا يعرف المنسي لماذا أصّر ابراهيم مليكة على الصعود.. ظلّ يصعد على جذع نخلة بجسد يمتدد وينكمش مثل دودة صفراء.. بمطواة صغيرة كان يقبض عليها.. راح يجزُّ سعف النخلة من عنقها.. يحدف منها سعفة تلو الأخرى في الفضاء.. تسقط الى جوار المنسي مثل مروحة ذات أصابع كثيرة.

لم يكف إلا بعد أن سمع العجايبي يقول:

ـ إنزل.. في هذا الكفاية.

هبط ابراهيم مليكة.. اخذ سعفة.. صنع للمنسي من أصابعها الخضراء ساعة.. أدارها حول معصمه.

لبث المنسي ينظر إلى ساعته الخضراء في دهشة واعجاب، ثم تابع السير وراء ابراهيم مليكة الذي حمل السعف على كتفه، ثم سأل في استغراب: ما الذي يمكن أن يصنعه ابراهيم مليكه او يستخرجه منها؟.. هل سيصنع منها ساعات اخرى؟

قاطع بخة العفريت المنسي بابتسامة ثعلبية.. أدهشه بسعة إطلاعه على ما دار بين أبيه وضيوفه ليلة الجمعة الماضية:

- الناس اللي اهتموا بالعفاريت..

نسوا أنهم العفاريت.

اتسعت دهشة المنسي.. من الذي نقل إليه كافة التفاصيل؟.. لن يقول له بخة العفريت أنه على صلة قوية بعفاريت البؤس التي تخبره بكل شئ، ولن يسمح لأحد أن يرغمه على الإعلان عن مصادره.

بهذه اللهجة الغامضة اعتبر المنسي أنه كان يتجه به صوب بوابات الجني والعفاريت الذين يحب أن لا يعطي لأحد مفاتيح الوصول إلى كهوفهم.

ومع ذلك اعتراه شعور بالخوف حين سمعه يتساءل:

- كان الحشاشون يتكلمون عن بلقيس...

قاطعه قائلا:

ـ أنت تعرف حاجة عن بلقيس ملكة سبأ؟

أجاب بمنتهى الثقة:

ـ ترك لي أبي كتابا فيه جميع قصص الأنبياء.

نسى الأ شواق الفيا ضة للذهاب إلى مزرعة الدكتور سعد بطرس.. ضحى بالتفكير في هيلدا.. أرجأ البحث عن خطة للهرب.

سارع بإعطائه قرص نعناع، رجاه أن ييسر له الإطلاع على تلك الحياة.

وضع قرص النعناع على طرف لسانه وهو يحذره قائلا:

ـ إياك تظن أن قرص النعناع يرغمني

على الكلام عن بلقيس.

أقسم انه لا يريد أن يكلمه أحد عن بلقيس، إذ سبق وأن طالع سيرتها الواردة في القرآن الكريم وما صنعه العفاريت في حياتها، إنما كل ما يرجوه منه أن يتمكن من استعاره كتاب قصص الأنبياء.

لف بخة العفريت حول نفسه مرتين، باغته بورقة مطوية في شكل حجاب صغير.. إدعى بأنه إذا و ضعها تحت المخدة، وعندما يهبط عليه النوم سيرى بلقيس ملكة الجنوب، ذات الجمال الرباني..

بان على المنسي الاستغراب وعدم التصديق، فعاجله صاحبه بقوله:

ـ صدقني.. ستغنيك هذه الورقة

عن قراءة عشرات الكتب.

بص الى الورقة بامتعاض.. ترى كم عفريتا بين طيات هذه الورقة؟.. هل يصـدق...؟.. تراوحت نظراته بين الورقة والإمعان في وجه بخة العفريت.

نطق في شك وتعثر:

ـ طيب إحلف لي...

حين حلف برحمة أبيه الذي يوم أن مات لم يكن يملك ثمن الكفن، قال المنسـي إنه يحلف بالله كذبا، انما عندما كان يحلف برحمة أبيه فإن أصـحابه يصـدقونه وهم مغمضـو العيون.

قابل أمه صدفة في منتصف شارع سيتي، كانت تحمل تموين الشهر، رفع عنها السلال الممتلئ بالسكر والعدس والفول والزيت والشاي والفلفل الأسود، حرصت أن تقبض بيدها على بطاقة التموين، وهى تعطيه خمسة عشر كابونا لشراء الجاز بسعر رمزي.

السلال الذي استقر على كتفه، والقبضة التي أطبقها بحرص على الكابونات، لم تمنع أمه من تحذيره لكي لا تضيع فيحرمون من ضوء لمبة الجاز نمرة 5، ثم صبت اللعنات على الظلام الذي كان مفروضا عليهم أيام حرب الإنجليز والألمان.

تذكر ما نشر على صفحات مجلة المصور.. قرأ لأبيه دخلت إيطاليا الحرب الى جوار المانيا في 10 يونية 1940، وضع موسوليني قواته التي تخدم في ليبيا هدفا لها، احتلال مصر و قناة السويس للسيطرة على البحر الأبيض وطرد الانجليز من المنطقة.

وقد لاحظ الألمان خطورة الوضع الذي يواجه أصدقاءهم فأرسلوا اليهم قوات كبيرة يقودها الجنرال ايروين روميل، وتم لها بنجاح أن تأسر أكثر من 9 الآف جندي بريطاني، واختار الإنجليز قائدا هو الجنرال برنار مونتجمري الذي نجح في حسم المعارك لصالحه بعد أن جعل من منطقة العلمين نقطة فاصلة لهزيمة روميل في اكتوبر 1942.

عفاريت في حياته من الإنجليز.. عفاريت من الألمان.. أبوه الذي كان يستحق لنداءات رجال الحرس الشعبي، إطفوا النور، ينزلق بجسده على السرير.. بشدقية الممتلئتين بأنفاس صدره، كان ينفخ مرة واحدة فينطفئ نور اللمبة.

وضـــع ســـلال التموين في هدوء وراء ضـــلفة الباب، ترك لأمه مهمة تفريغ محتوياته، زحف على يديه وركبتيه اتجه الى مرقده تحت السرير، ألقى جسده على البطانية.. ا ستخرج ورقة بخة العفريت من جيبه، وضعها على صدره .. رنَّ في رأسه صوت قديم: إطفوا النور.. الغارة مســتمرة، رأى وجهه من تحت جفنيه وهو يبتســم.. توهم أنه يســتمع الى صـــوت قديم.. ذهب العفاريت الجدد بما حـ صلوا عليه من غنائم البلدان، جاء العفاريت القدامى، لم يطرأ أي جديد على أضلاع مثلث حياته.

يبدي الأسف لفشله الدائم في الحصول على نتائج مسائل الحساب الصحيحة، ولا يزال الخط العربي والكوفي ينحدران من فوق السطور إليأسفل.. الخوف الدائم من عصا الشيخ ابراهيم عبادة يطارده.. في نهاية الركض وقف يشاهد أجزاء من جسد إنسان وهى تتطاير.

استوقفه رجل كان يتابع حركة العابرين، قائلا:

ـ لا تصدق من خدعوك وزعموا أنني إنسان.

حملق في الوجه ذي العينين المفتوحتين عموديا حتى ليكاد أن يصــلان إلى منابت شــعر الرأس بالقرب من الجبهة.

سأله:

- من أنت إذن؟

- أنا عفريت من الجن.

تذكر لمعة حدقتي بخة العفريت حينما قرأ له صفحة من كتاب أبيه:

- مكتوب هنا لكي تطمئن يا انسان..اعلم

بان للحروف قوة في باطن العلويات،

ولها هوة في باطن السفليات.

ثم لفت انتباهه اكثر من مرة إلى وضــع الورقة التي نقلها من هذا الكتاب على صــدره ويقول وهو مغمض العينين:

- اللهم بإسمك المعظم سخر لي صمصام

بن طمطام ومهراش الذي به النار أخمدت.

تحت سـماء السـرير الذي اسـتلقى عليه أبوه وأمه، شـعر بجسـده ينحف، ينكمش، في طريقه إلى الا ضمحلال.. تحول رويدا.. رويدا إلى حجم ضئيل حتى و صل الى نقطة بحجم الصفر.

المشـكلة التي جابهت هذا الصـفر أنه كان لا يني يحاول الخروج من آفاقه.. إذا جال بناظريه صباحا وجد أن يومه أصبح غارقا في القدم.. لا يد له في أي شئ.

وبرغبة محضة أحيانا، وإرادة مستلبة أحيانا أخرى، وجد ما يربطه بأضلاع المثلث، وأرقام الحـ ساب، وأ شكال الخط العربي المنحدر من على الـ سطر الى أ سفل بمثابة حبل تديره هيلدا حول رقبته.

لكن تردده على عتبة باب بيت لا يعرف أصحابه، ألجمت لسانه.. هناك أمور كان لا يتوقع حدوثها.. تناهت إلى أذنيه أ صوات متشابكة.. فرقعت عدة ألسنة بلغة لم يفهم حرفا واحدا من كلامها.. تخلل ذلك صـوت المنادي في الأسـواق معلنا خبر مقدم «سـبأ» الرجل العظيم من نسل إبراهيم عليه السلام و «كيتورا» إلى حاضرة اليمن السعيد.

عقب تلاشـي صـوت المنادي، ظهر شـخص كان يبدو عليه ملامح رجال الآثار، اهتم بالحديث الى أناس من مختلف الألوان.. ذكر أن «ســبأ» أســس مدينة حملت في أول الأمر اســمه، وهى تعرف اليوم باســم «مأرب» وكان لسـبأ أخ يدعى أعراب، وهو الذي أورث اسمه جزيرة العرب.

وجد المنسي نفسه غريبا بين قوم لا يعرف من منهما سبأ، ومن منهما أعراب، فاستنكر الجميع جهله، وقالوا بسخط بالغ:

ـ كيف أصبحت لغتك المقدسة ضعيفة؟

.. هل نسيت جدودك؟

أثناء بحثه عن رد منا سب، رأى رجل الآثار والتاريخ قد سارع بالانحناء على قطعة من الأحجار.. تأمل نتوءاتها مليا، ثم أوضح لمن إلتفوا حوله من السياح: إن سلالة سبأ كانت تحكم اليمن حتى ولدت «بلقيس» الوريثة للبطريق «عيبر» الذي كان جده الثالث ســام بن نوح، وهو الأب المشترك للعبرانيين والعرب.

وبعد أن فرغ المنســي من أداء صــلاة الفجر، رأى عن يمينه الملكة بلقيس وهى تقوم بزيارة الملك ســليمان في ســتين من الفيلة البيضــاء المحملة باللآلئ والمرجان والدمقس والبخور اليمني، واللبان، والمر، وغيرها من الأطايب والأفاوية، وقد اصطف وراءها ألف ر جل من ر جال ســبأ، وهم يقودون جمالا محملة بالأمتعة والهدا يا، يليهم ألاف من الأحباش.

...

ارتاب فيما رآه.. كل ما شافه جاء مخالفا لما ورد ذكره في سورة النمل.. أين العفريت الذي رفع قصر الملكة بين يديه، ثم أين هو القصر المموه بالقوارير؟.

وجاء في أنباء المنادي على إيقاع الطبلة أن نعنوشــة زوجة منصــور النجار، حملت اليوم من ذئب في الخندق الذي كان يســتعمل لإيواء الأهالي الفارين من غارات الطيران الألماني، ثم أشــار الى القادم من بعيد، قائلا: هذا النبي الحكيم.. الشــاعر، قاهر الملوك ومؤلف نشــيد الإنشاد.

نزل الملك سليمان من على صهوة حصان أبيض، له جناحي طاووس، فبانت على صدر قاهر الملوك ر سومات مو شاة بخيوط من الذهب، وكانت لحيته المسترخية على صدره في ضفائر رفيعة، تبرق وتشع بخيوط الذهب التي تخللتها.

اتسعت ذراعا الملك ترحيبا بالملكة، وكان محاطا بصفوة من رجال البلاط المقربينإلى قلبه.. «صـادق» الكاهن الكبير، وإبنه «عزريا» الذي شـغل منصـب قهرمان القصـر، والى جوارهم وقف «الياحورف» كبير مستشاري جلالة الملك، و«يهو شافاط» رئيس السجل، وقد تقدم على الكاهن وقهرمان القصـر ورئيس السـجل الملكي «يانا ياهو» القائد الأعلى للجيوش، وكان هو الوحيد من بين حاشـية الملك الذي التفت على صـدره وذراعيه السلاسل الذهبية والنياشين المرصعة بالأحجار الكريمة.

وسط جو باذخ بالثراء والجمال والقوة، همس المنادي في أذن كانت قريبة من فمه:وعلى ما يبدو أن المحتشـدين في ذلك اليوم نسـوا ما كان يدور بين أروقة القصـر، وانصـب اهتمامهم على متابعة حفاوة الملك بضيفته التي سيتزوجها.

وحينما صـاحت الديكة للمرة الثانية، كانت قد عمت الأرجاء أصـوات آذان الفجر فنهض المنسـي من نومه تحت السـرير، ثم جلس امام صـفحات القرآن.. ظل يقلب الصفحات حتى تأكد من فشله في العثور على آية واحدة تجعله يؤمن بحقيقة ما رأى.

هذه عفاريت بخة العفريت الكاذبة، بص في ورقته الملعونة، كانت تغص بحروف مثل نبش أرجل الفراخ.

واثناء استعداد أبيه للخروج في طلب البحث عن عمل قال له:

ـ ابقى طلع لي من السحارة عدد مجلة المصور

اللي فيه هزيمة قوات هتلر قدام زحف قوات

الفيلد مرشال مونتجموري.

(6)

الفصل السادس

انتهزت الست فضيلة فرصة وجودها في البيت، راحت تهتم بتنظيف غرفة النوم، فرشت حـ صيرتين في الحوش الوا سعة، بعد أن اغلقت على عـ شش الفراخ والبط، شالت الأغطية والمخدات والمرتبة، طرحتها عن رأسها على الحصريتين حتى تعرضها لحرارة الشمس.

على حين كان المنسي على أهبة الا ستعداد للذهاب بحثا عن بخة العفريت، مـصمما أن يشج رأسه بطوبة أو يحدث في وجهه أي جرح، عساه لا يعود الى خديعته مرة أخرى.

لمحت الضيق يكتسي وجه ابنها حين أمره أبوه بأن يأتي بكرسيين من الداخل ويضعهما أمام عتبة باب البيت الخارجي، حيث يرى أن تكون جلسته قبالة بيت منصور النجار، لكي يريه أنه يفهم أكثر منه في السياسة:

ـ أقعد يا ولد.. اقرأ بصوت عال.

انتقل بذهن شارد –وهو يقرأ بـ صوت مـ ضطرب– الى تلك الطرقات التي تنتظر قدومه بفارغ صبر.. الأسفلت تحت قدميه يصير مثل طبلة مشدودة الجلد، ما أن يمسه بقعر قبقابه حتى تند عنه أصوات تثير حفيظة المارة.

نظرات الإزدراء التي تلاحقه، جعلته يشعر بأنه غير محترم.. لهم الحق في أن يدموا صدره وظهره بنظراتهم.. الطربوش مطبق من عند استدارته.. شراشيب زر الطربوش بدت حائلة اللون.. جلباب مقلم من الكستور.

تفضي به الطرقات الى طابور الصباح المدرسي.. يقف الطلاب في صفوف تحت علم المملكة المصرية.. ينشط الأستاذ محمد السقا مدرس الألعاب الرياضية بين الصفوف.. يحط عينيه على الملابس النظيفة.. التلميذ المشعث الهيئة، أو من جاء بعماص عينيه ولم يشطف رأسه بالماء والصابون، أو لا يكون على رأسه الطربوش، يحرم من اليوم الدراسي، حتى لو تعلل بوجود الطربوش عند الطرابيشي لتنظيفه والدفع به الى مكبس قالب المكواة الحديدي حتى يعود إليه جماله وزهوته.

دس المنسي الطربوش المضعضع الحواشي في الحقيبة القماش، على أمل أن يفرج الله كربه فيأمر الأستاذ بطرده ويخلصه من كم العذاب الذي يتلقاه كل يوم.

المجتهدون ومن ليس في ملابسهم رقع أو مزق يجلسون في اعتداد الى أدراج الفصل.. من لم يحفظوا اللوح القرآني المقرر، يعرفون طريق الردهة التي تؤدي الى دورة المياه والمراحيض، يصطفون هناك في صف حتى يأذن الله بالفرج ويخرج الشيخ ابراهيم عبادة من بيت الراحة عقب التخلص من انتفاخ يصيب بطنه بسبب التهامه كل صباح طبقا من الفول المدمس وعددا من أقراص الطعمية.

في ذلك اليوم حاول أن يكون محترما، لا يبعث على الاستياء.. حاول أن يمشي بخفة وتؤدة حتى لا يخدش أسماع من كانوا ينظرون إليه في ضيق، كأنهم ملكوا الشوارع وصارت حكرا عليهم.

لعله يوهمهم أنه ذاهب في مشوار مهم.. ربما يعثر على الأسطى ماهر صانع الأحذية، مع أن أباه زعم لأمه أمس أنه ذهب للحج.. أمه صدقت بطيبتها.. هو لم يصدق بخبثه ودهائه.

ألا يوجد في هذه المدينة الكبيرة جزماتي آخر يحذق توسيع الأحذية الضيقة؟!

ـ اقرأ.. انت سكت ليه؟

خرفشت أوراق مجلة المصور بين يديه.. بص في ملامح المارشال روميل.. ستائر من الرمال تنتصب خلفه.. فجوة مظلمة في كهف يخرج منها المارشال.. هنا كانت تقع غرفة العمليات الحربية بالقرب مرسى مطروح.

انتزع المعلم معروف من بين يديه المجلة.. راح يتأمل ملامح روميل الملقب بثعلب الصحراء، كأنه يعطي لمنسي الفرصة لأن يمضي على الأسفلت براحته.

هل كان إبنا عاقا عندما فكر في البحث عن أب صـادق يكون لديه حل لمشـكلات ابن جعل رأسه في الأعالي، وتجاوز في بعض الأمور تصورات العقل؟.

صافح بعينين متسعتين يافتات المحامين و عيادات الدكاترة.. إنه حر بغير أب، سعيد بمطالعة أشـكال الخطوط العريضـة في اعجاب ودهشـة.. تجاوز أسـماء الصـيدليات.. اكتشـف بأن في البلدة عيادات كثيرة للكشـف على المصـابين بأمراض البلهارسـيا.. الإنكلستوما.. معظم العيادات التي طالع أسماءها، كانت للأمراض المستوطنة.

معنى ذلك أن الأمراض الوبيلة تسـتشـري في أجسـاد المواطنين بشـكل ملحوظ.. لم يستبعد أن يكون أبوه واحدا ممن يسيرون على أقدام الموتى بلا أكفان:

ـ انتظر.. انتظر.

أمره بالتوقف عن القراءة.. جعل يتأمل فيما قرأه عليه وما لا يفهمه هو، ثم قال:

ـ معنى كدا لو كان الله نصر هتلر ما كنش

ها يبقى فيه كيان صهيوني في فلسطين.

عاد للقراءة بلا فهم، لا يعنيه من اهتمامات أبيه الا التحديق في الصــور المنشــورة على صـفحاتالمصـور لأبطال فيلم "غزل البنات" في أول عرض له على شـاشـة سـينما ريفولي بالقاهرة.

بذهن شـارد، شـطح فكره في بخة العفريت، كان يتمنى أن يقف الى جواره شـاهدا على الحق، في وجه خ صوم أنكروا عليه أنه أول من خرج عليهم بفكرة النداء بال صغير بدلا من النداء على الأسماء بالألسنة.

في مواجهة صـلابة الأمهات اللاتي يرفضـن أن يكون لأبنائهن أصـحاب حتى ينجحوا ويحصلوا على شهادة البكالوريا.. في مواجهة الأمهات اللآتي ضربن حول أبنائهن طوقا من الأ سلاك الشائكة، و ضد كل من يحولون بينه وبين أ صدقائه للعب كرة الشراب وإطلاق الطائرات الورقية.. وقف ينفخ ضـجرا.. تشـاء الظروف أن تخرج النفخة مثل إلهام لفت انتباهه على صوت ينتزع من بين الشفتين.

سـعى إليأصـدقائه بفرح.. قال هذا سـلاح جديد يمكن اسـتخدامه اتقاء لغلظة الأباء و شتائم الأمهات.. من يريد صديقا فلا داعي أن ينادي عليه بإ سمه.. يمكنه أن يمـضي في خفة بجوار باب أو من بعيد وهو ينفخ بالصغير من بين الشفتين.

بعد أن نجحت الفكرة، ألا يحق للمنسـي أن ينسـب إليه نجاح الحصـول على وسـيلة تستطيع التغلب على تصرفات أم تبارك الانغلاق على ابنها؟

أتاه صغير حمله على غلق صفحات القرآن على سورة الجن.. راقب أمه وهى تكنس، ثم وهى تلقي بالكناسة أمام مناقير الدجاج، وتعود من عشة الفراخ بطبق مليئ بالبيض، وكان الصغير لا يزال منسابا.

من نحافة صوت الصفير.. من صفاء صوت الصغير.. يمكن التعرف على شخصية المنادي.. هذا رزق الله العجايبي.. هذا حلمي عبد العال.

خرج حافيا بغير قبقاب، كان يأمل أن يقر الجميع بأن اكتشافه سهل عليهم الالتقاء، بيد انهم ملئوا حلقه بالغصص.. اجمعوا بأن ليست له موهبة الابتكار والاكتشاف، وان الصغير الذي يدعي بأنه علمهم إياه، كانت شـفاههم نطقت به منذ أن خرجوا من بطون أمهاتهم، ولا فضل في ذلك لأحد عليهم.

صـعب جدا على النفس أن يرى من يزعم بأن ليس له حقا فيما يدعيه، وبصـدر متخم بمشـاعر الاسـتلاب والإحباط، وجد أن اللعب أفضـل وسـيلة في مواجهة الانهيار الذي تتعرض له نفسه.. اللعب هو الزمن الوحيد المختص بتجديد المشاعر والأفكار.. ينسيه اللعب وجوه الفشل، والكذب، وما يصيب النفس بالغم والنكد.

يقر بأن ما حصل له لا يبلى.. لا يموت، إنما ينطوي كصفحة في كتاب، يرى من المفيد الابتعاد عنها مؤقتا.

صار الصفير المنساب إليه من بعيد أكثر إلحاحا.. أغلق صفحات القرآن على آية: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾.

أثناء انهماكه في القراءة بذهن شارد، كان أبوه يستمع الى ما نشر على صفحات مجلة المصور، ويتابع في نفس الوقت –بعينيه– حركة منصور النجار، فقبيل الظهيرة من كل يوم، اعتاد ان يكنس العطفة من أول بيت فيها الى آخر بيت، ثم يرش الماء بكوز من الصفيح أمام جدار بيته، وتحت البنك الخشبي، ثم يبدأ في وضع العِدّة عليه.. المنشار.. الفارة.. التي يستخدمها في مسح الأخشاب.. الشاكوش.. الكماشة، علبة ممتلئة بأشكال من المسامير مختلفة الأحجام، ثم يأتي بكرسي صغير،. يجلس عليه في انتظار فرج الله.

نهض المعلم معروف فجأة، كان هذا إيذانا بالانتهاء من القراءة.. سمعه المنسي يقول وهو يدلف من باب البيت:

ـ غابت أمك قوي في ولادة بنت أم هنية.

وكاد المنسي يرقص فرحا لأنه سيطير للعب مع أصحابه.

(7)

الفصل السابع

جلس منصور النجار الى جوار البنك الخشبي مرتديا قميص الحزب الأخضر.

كان مهتما بمطالعة "مصر الفتاة" صحيفة الحزب.. تحت السطور.. ما بين السطور، لفح الجحيم، في صدر معذب بالضمير، لإمرأة تشيله على رأسها أيام الحرب وما بعد انتهاء المعارك.. في ليل الزمهرير، دائما يسبق كرمها لسانها.. لا تطالبه بأن يكفل لها الغذاء والكساء.. تولت هى بالنيابة عنه، تدبير هذه الأمور.

ترى في أسى، كيف انصرف الزبائن عن دق بابه كأن الناس في أيام الحرب لا يخبزون ولا يستعملون مطارح الخبيز بعد انتهاء المعارك.

الى متى لا يدق منصور مسمارا في باب بيت أو شباك ولم يطلب إليه أحد أن يصنع طبلية تجلس الأسرة حولها لتناول الطعام؟.

يعانق منصور النجار نعنوشة في اشتهاء، بعينين تملؤها غيوم السموات المعبأة بأوبئة الحرب، حيث تنكسر أعواد القمح تحت وطأة أحذية الجنود، وظلام تستخفي فيه البيوت.

يعانقها في اشــتهاء يقهره الوهن، طوال ليلة تنبض في كأس من الألم، وإذ بجرعة من الخمر تلقمه ثديا للحياة.. تجعله كونا وافر الظلال.. يشب النخل على ضفتيه ثم يمضي، كسهم، كريح.. يبغى الخروج من الغرق على سطح برميل معتق من النبيذ.

أخرج قنينة من جيب سرواله.. رشفة.. رشفتان على أكثر تقدير في قاع القنينة، مع نبض الألم لا تكفي رشفة واحدة.

يا قنينة أسـرار الحكمة، لعلك تؤدين شـهادتك الآن.. لكى ينهض ويقوم بدور شـاب مكتمل الرجوله، عليه أن يتناول عشرين زوجا من فراخ الحمام، بشهية منفتحة.

زايل مكانه الى الداخل، دار دورتين داخل الغرفة فدارت رأسه.. حصير ينام عليها.. قلة من الفخار، عدد من الصحون وحلة لطهي الطعام.. وابور غاز.

حين اسـتدار مرة أخرى، لمح الباب لا يزال مواربا، امتدت يده الى الترباس، في لحظة خاطفة، فكر في غلقه حتى لا يسمعه العالم ولا يراه أحد من الجيران.

قبل أن يحرك الترباس برباطة جأش، توقف برهة، نظر من خلال الباب الموارب.

يقع على نا صية العطفة بيت المقدس م شرقي الأخ الأكبر لمليكة الأطروني، البيت ظل مغلقا طوال الـ سنوات الما ضية بعد ان انتقلت الأ سرة الى دار جديدة في الحـ سينية، لتعيش بين بيوت اليهود المصريين و اليونانيين الذين يعملون في محالج الأقطان.

لـ صق بيت المقدس م شرقي يقع بيت المعلم معروف.. يعيش حياة المو سرين من حر مال زوجته المولدة.. تتكفل بمصـاريفه ورعاية ولد من الشـياطين، ومن فائض مالها تربي الـد جاج والبط والآرا نب، والمعلم ينظر للناس في عنطزة وغرور، وهو يأكل ويشـرب الحشيش كل مساء، مع جماعة من أصحاب المزاج.

أمام بيت المعلم معروف يقع بيت الـسعيد أفندي عبد العال الموظف بهيئة التليغراف.. رجل في حاله، لا يُرى إلا وهو يسـحب في هدوء عجلته، وعندما يصـل الى باب العطفة، يعتلي مقعدها ويندفع ناحية شارع سيتي، ثم هناك بيت خليل أغا سائق الأتوبيس، وبيوت كثيرة لأناس ميتيين.. كأنهم يعيشون في كهف بهيم، وهو من فولاذ المسامير التي كان يدقها في ضلوع الأخشاب.. يحاول أن يستخرج من رأسه منجلا ومعاول للهدم.

المشـكلة . كيف يخلص جسـده من هموم الآدمية؟.. التصـميم على عدم الوصـول إلى حافة اليأس، ضـرورة لبقائه.. تتراوح خطواته بين الكبت النفسـي والكبت الإجتماعي.. عادة يأتي فائض الكبت بمشـاعر كئيبة، تتبلور في شـكل أسـئلة عمن ماتوا بلا مبرر، ومن طردوا من أوطانهم في فلسطين، وفي صدورهم صبّارة تنمو في باحة البيت القديم.

لا يدري منصور النجار لماذا ترك الباب مواربا طوال ذلك الوقت؟ ربما توهم أن الآتي لن يكون مخيفا، وأن الرياح التي تنسرب من ثقوب الأبواب والشبابيك لن تسمح للضيق الا بالانفراج، حيث لا تعود بيوت العطفة تطل عليه كأشباح تختفي وراء سحنتها ما يمكن أن يتصوره العقل ويجري لنعنوشة من مكائد الرجال في الخندق.

كانت تبدو مثل ثمرة ذابلة، انها شـمعة حياته التي أطفأتها هموم الأيام.. المؤكد أن جسـدها الهزيل لا يغري بالرغبة فيها.. لا يوجد في مدينة الذئاب الجائعة ذئبا أعمى، يغريه وجه غضنت وجنتيه.. بملامح من طين، تطل من شرايينه رعشة من انتفاضة الموتى.

لنعنوشة ثلاث دجاجات، صنع لها قفصا من أخشاب صناديق الصابون الرقيقة، ألقاه بالقرب من الجدار الخارجي، يفتح لها الباب صـباحا.. يدعها تسـرح في العطفة، وفي الشوارع البعيدة وقبيل أن يهبط المغرب تعرف طريقها الى قفص المبيت.

من يطمع في ثلاث دجاجات تتسول طعامها من نفايات الطريق، ومن كناسة البيوت؟

فتح امامها باب القفص.. خرجت الواحدة إثر الأخرى، سـارعت في العبث بمناقيرها في صفائح علب السلمون الفارغة.. تا بعها وهى تستدير لالتقاط الديدان الناشطة في أرضية الزير الفخاري الذي وضعته ألست فضيلة في منتصف العطفة كسبيل يشرب منه العابرون

انصــرف عن متابعة الدجاجات، حيث كانت مهمتة بالتهام الديدان.. انســحب الى الداخل.. عاد مسرعا وفي يده بقايا الرشفة الأخيرة في قاع قنينة الكونياك.. رأى الدجاجات تعود لنقر علب السلمون.. أحدثت النقرات صوتا متواترا، يبدو أن صدى الصوت كان يجعلها تشعر بالسعادة، فتستمر في النقر بانسجام.

حين أقبلت عليه نعنوشة وهى ترفع الرضيع الذي كان يخامره الشك بانه ليس ابنه، سرعان ما شاب سريرته شعور بأن كل شئ يأتي من الله، وبما أنه لا يريد ان يفتح على نفسه أبواب الكهف.. صاح في صوت ملؤه الفرح:

- أصبحنا أغنياء يا نعنوشة.. ألا يكفينا أن

نملك في هذه الحياة ثلاث دجاجات ملونة؟

لم ترد، اكتفت بإلقاء شنطة ورقية بين يديه، فاح منها رائحة الخبز المتخثر والجبنة القديمة.. لما شافها تلقي بجسدها على الحصير.. قال وهو يطوح بالقنينة الفارغة: لن أكرر الأسئلة،، الأمر بات مؤكدا.. هناك رجل يتشبث بجذور شجرة غير مرئية، قد لا تكون كائنة الا تحت ظلاله، وهناك من جدعت أطراف أنوفهم

حين طالبوا بسـقوط الحكم الملكي والرأسـمالية، خلال ذلك الوقت الذي كانت تقترب فيه جيوش دول المحور من العلمين غرب مدينة الأسـكندرية، بينما زحفت قوات المرشال منتجومري متقدمة من طبرق في اتجاه السلوم.

في تلك الأيام كان خائفا من شراسة و شراهة القوة التي ترى في خراب مصر ضرورة لدعم حضارة الغرب، ومن ينشطون ذهنية الاستفادة من أنقاض المدن الآيلة للسقوط، وفي خراب كانوا يرونه مقدسا وضروريا.

بص من خلال فرجة الباب الموارب، عاد المعلم معروف ليقرأ له ابنه من مجلة المصور.ود منصور النجار ان يكون اثنين.. ثلاثة.. أربعة، واحد فقط لا يستطيع أن يتحمل معاناة الحياة المفعمة بالمعنى واللامعنى.

انفجار الأحاسـيس لفت إليه أنظار البصـاصـين وأذنابهم، ومن كانوا يعتبرونه تاريخا اجتماعيا، ونفسيا، يجب أن يهمش، حتى لا يسمح لرواسب الأعماق أن تطفو على سطح الحياة فتصيبها بالكدر.

كانت عطفة السقعان، يرين عليها سكون يوهم من يمر بها بأن ليس فيها بشر يعيشون، وكانت لا تسمع فيها سوى نونوات القطط ونباح الكلاب الضالة، إذ بها تصعد فجأة من قيعان العزلة لتصير مثل بقعة ممغمطة، تستقطب اهتمام من أخذوا على عاتقهم رصد تحركات عضو جماعة القمصان الخضر، ومن أصاب بالأرق –لعدة ليال- رجال المكتب السياسي المدعو منصور حامد النجار الناشط في حزب مصر الفتاة.

اجتمعت هيئة المكتب لوضع خطة لمراقبته، روعي فيها أن تكون مؤمنة وغير مكشوفة.

رشح احد المخبرين المعلم معروف ليكون عينا لهم، ولا يشك في نجاحهم عن طريقه، خاصة والرجل مهيأ لخدمة المكتب، بعد أن فصل من مصنع الصابون بسبب اثارة العمال ضد صاحب المصنع، وبما أن ظروفه المادية أصبحت غير ميسرة، فإن ذلك سيسهل عليهم المهمة.

اعترض مخبر آخر على المعلم معروف.. حذر من الاتصال به، معللا الأمر بأنه إذا علم ما يبيتونه لمنصور النجار فإنه لن يتقاعس في تحذيره ثم فرغ من الكلام بقوله لمخبري المكتب:

ـ انا شايف تشوفوا لكم باب غير معروف..

أنا أعرفه جيدا.. هو يفضّل صداقة الحشاشين

والكلاب على التعامل مع واحد من الحكومة.

أثار ذلك القول رد فعل سئ في نفس سيادة مدير المكتب السيا سي.. كان يبدو لمن لا يعرفه على جانب من خفة العقل.. قد يكون لقصر قامته دخل في الإلحاح عليه وهو ينفخ في جسده، لعلهييدو اكبر من طوله وحجمه.

ضـرب صـدر المكتب بقبضـته المعروقة، لدرجة أن صـوت الخبطة ألجمت الجميع بالسكات، ومع ارتفاع الحاجبين بالدهشة والاستنكار.. قال:

ـ إيه التخاريف اللي انا باسمعها منك

يا عبس.. خلاص، الحكومة ماعدش

لها أي اعتبار.

فكر عبس المتولي رئيس المخبرين الســريين في الوســيلة التي يقنع بها ســيادة مدير المكتب.. قرابته من ناحية أمه بنعنو شة،تضعه في مواطن الشك من قِبل منصور النجار إذا تردد عليها بقصد الزيارة.. اما بخصوص المعلم معروف واعتماده كمرشد رسمي وضمه إلى من يعملون في خدمة المكتب فهذا ضــرب من المحال، لأن الرجل يحب أن يتحلى بشهامة أولاد البلد الجدعان، ويرى من المعيب في حقه أن ينم أو يمشي بالوشاية.

ترك سيادة مدير المكتب السيا سي البحث والتحري عن منصور النجار، وبدأ يصب جام غضبه على المعلم معروف، مع أنه لم يره ولم يسمع عنه أي شئ من قبل، غير أنه لم يكن يتصور أن مواطنا في بر مصر يقبل بفكرة التحدي لإرادة الحكومة، ولا ينصاع إلا لأوامرها.

خبط على مكتبه بعصبية وعناد.. قال؟

ـ والله لو كان على شنب أبوه يقفوا صقرين..

إن ماكنتش أخليه يلبس ملاية وطرحة النسوان،

ما ابقاش أنا باتع المنفلوطي.

انحنى أمامه رئيس المخبرين موضــحا في احترام، أن قضــية اليوم والتجهيز لإعدادها ليست ضد معروف وإنما مع منصور النجار.

ولكي يطيب خاطر سيادته، وعده بأن سيدفع إليه –قريبا باذن الله– معروف وهو مقيد بالسلاسل.

ثم قدم خطة محكمة للإيقاع بمنصور، ووافق سيادته عليها، وبسرعة البرق، دفع أمامه بخليل أغا سائق الأتوبيس في شركة جوزيف كافوري.

فتح مدير المكتب أحد أدراج مكتبه.. أعطى لخليل أغا قطعة حشيش، وهو يقول مشجعا:

- خذ ابسط نفسك.

وترك شرح تفاصيل المهمة لرئيس المخبرين.

(8)

الفصل الثامن

اختفى بخة العفريت طوال عدة أيام.. أحدث غيابه حالة من الإرتياح.. قالوا: كلب ذهب في ألف داهية، لكن قلقا من نوع جديد بدأ يغزو قلب المنسـي، بعد انصـرام ليلة قضاها في الكوابيس، شاف خلالها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قال: لن يستريح إلا بعد أن يفتح قرنه بطوبة، حتى يسيل من رأسه الدم، وتكتسي عيناه بالعماء.

لديه الحق في كل ما يفكر فيه.. لقد خدعه بورقة مليئة بحروف مثل نبش أقدام الفراخ: أيها الملك طاروش.. أيها الملك فارشـوس.. أيها الملك كارتوش صـاحب الأربعة رؤوس.. أيها الملوك العظام.. افتحوا لمن حمل أسماءكم المعظمة الأبواب المغلقة.

الغريب أنه عاد.

عاد في مسـوح الأتقياء؟.. لا يصـدقون عيونهم وهم يرونه ينحني على رؤوسـهم وأياديهم.. ابتلع الاهانة بشكل لا يصدق.. يشيع من يلعنه بكلمة: رُح الله يسامحك.

من يصدق؟

لا.. ليس هذا بخة العفريت الذي لا يذكرون شيئا من أ صله الطيب إلا حـ سنة واحدة، حين ألمت بهم المـصائب، يوم أن تعر ضوا لهجمات قادها أولاد كفر الغجر، ومن اعتادوا أن يأتوا من غرب البلدة للإستيلاء والسيطرة على الخندق بأبوابه الأربعة ليوسعوا من نطاق ممارسة رذائلهم.

كأن زمن العجيزي، والصبان، والحجعلي، يعود بمنطق ميت حدر خلال الشوارع التي أوضح المعلم معروف معالمها للمنسي.

في الو ضع المأزوم.. من موقف العجز وعدم القدرة على الوقوف ضد قوى الـ شر التي كانت تسعى للسيطرة على جزء من الأرض يعتبرونه من كيانهم.

بـ ضيق من الـ صدر، نفخوا أفواههم بالـ صفير حتى حـ سبوا أن الأرض انـ شقت عن بخة العفريت.. بمجرد ما لمح بنصف عين عدوانية المتحرشين بهم.. اهتم قبل أي شئ بلملمة أسـماله، أدار حول وسـطه قطعة من خرقة قديمة، أخذ وجهه ملامح المقاتلين البواسـل، أدار حول رأسه شريطا رفيعا غرز فيه ريشا بألوان البط والأوز والدجاج.

بدا كمقاتل مرعب، جاء من عهود الموتى، بألف ذراع، بألف عين.. الأمر الذي استرعى إنتباه المارة وحملهم للوقوف على الرصيف في حيادية المشاهدين، ومن تسعدهم رؤية الدماء ولا يفكرون سوى في متعة الفرجة.

رجح أحدهم أن بخة العفريت فيه البركة.. أثار أحدهم فكرة موت بخة العفريت في هذه المعركة.. هل سيعتبر من الشهداء؟.

من احتشدوا أمام بقالة ياسين، زعموا أن أباه –رحمة الله عليه– بعد أن ضمرت عضلات يديه من العمل عند أصحاب الوكالات لغربلة الفول والعدس في المناخل والغرابيل، استغنوا عن خدماته، فمات وهو يصلي داعيا الله على من امتصوا دمه.

يظل أثر المعركة على وجه بخة العفريت لعدة أيام، تبقى الجراح على وجهه علامة وذكرى تأسر القلوب، وهى تذكر الجميع بمدى ما كان عليه من بأس دفع المهاجمين الى الفرار.

ما يتمناه المنسي أن يعود صديقه إلى سابق عهده عفريتا، يسير به الى سكة العفاريت.. لعله يتمكن من نقل أهرامات مصر ليضعها على مشارف مدينته.. حلم لا يجسر على تحقيقه سوى عفريت من نوع ذلك الذي جاء ذكره في سورة النمل.. إذا كان ذلك حدث بالفعل.. لماذا لا يمكن أن يحدث مثل الذي حدث؟.

في محاولة للتأثير عليه وإلهاب مشـاعره، اسـتعاد المنسـي أمامه ذكرى الأيام الخوالي، حيث كان إسمه يجري على مختلف الألسنة.. عنيدا.. مشاغبا.. متحفزا.. ذكره بالأيام التي نافس فيها –بمفرده– فريقا لكرة القدم.

كان هو الجول.. خط الباكات.. قلب الدفاع.. خط الوسط.. المهاجم الذي يلعب على الجانبين وفي يده طوبة، يهدد بها كل من يحاول إيقاف تقدمه من الفريق المنافس، أو أخذ الكرة من بين قدميه، من يعترض طريقه نحو المرمى سـيجد نفسـه مضـطرا لأن يفتح قرنه بالطوبة.

من لم يكترثون بتهديداته، ساحت دماءهم على عيونهم.. كانت المباراة فريدة في نوعها، سيطر عليها بخة العفريت بتاكتيك ساعده على فتح الملعب حتى نجح في احراز خمسة عشر هدفا، ولم يتوقف إلا بعد أن انســحب الفريق المنافس، ليضــمد الجراح، ويعالج ما لحق بأعضائه من إصابات.

لا يحب له المنسـي أن يراه مثل نسر بلا أجنحة، من مصلحته الا يهادن، والا يكون طيبا.. يريده بلا وهن، أن يظل عفريتا حتى يعمل له الكبار قبل الصغار ألف حساب.

لكي يهيؤه للعفرتة، قفز أمامه في الهواء عدة مرات، لعله يتجاوب معه.. علق عابر سبيل على حركات المنسي اللولبية، قائلا:

ـ كانه عفريت مكسر السلاسل.

لديه طاقة مدخرة، لا يعرف ما سيقولون حين يكشف لهم عنها؟.. من حيث لم يكن يتوقع، بدا علي بخة العفريت الامتعاض، كان يتنبأ له أن يصبح ذات يوم رساما أو خطاطا.. ألم يكن يحب الزهور وركوب النورج في مزرعة الدكتور سعد بطرس؟

صارحه بقوله:

ـ أنت خدعتني.. أنا كنت فاكرك ملاك.

كلام فارغ.

كيف يكون ملاكا وطبلته قد تحولت الى تراب؟.. ملاك أرغمه أبوه للجلوس مطأطئ الرأس تحت موسى الأسطى ربيع ليحلق له زلبطة، عقابا لأنه تمنى أن يشتغل مسحراتي.. أين ذهبت تصورات القلب التي حرم منها؟

تحامل على نفسه، اضطر لتذكير صاحبه بأعماله الخسيسة، لعله يشحذ همته، أين ذهبت تلك الأعمال التي كانت تثير غضــب الأصــدقاء؟.. أين هى الأعمال التي كانت ترعبهم ولتزيد من ارتفاع قامته في نفس الوقت؟

قال فيه المنسي كلاما أكثر من ذلك.. المدهش في الأمر أنه لم يستنكره، وإن كان قد أكد له أنه لم يرتكب الشرور بايعاز من العفاريت حسب توهمه، وإنما إذا سأله عن سبب أعماله لكان أخبره بالكثير عن وحوش المدينة، ومن جرت في شرايينهم دماء التيوس والحملان.

لا يريد المنســي أن يســتســلم لخيبة الأمل.. ســيظل يلح عليه حتى يريه –ولو لمرة واحدة– عفاريت الملك سليمان، أو أي عفريت آخر خضع لسلطان تولى حكم الشعوب من بعده، شريطة الا يكونوا من نوع هؤلاء الرجال الأقوياء الذين كانوا يمشون وراء الفيلة البيضاء يوم الاحتفاء ببلقيس.

إذا لم يشأ أن يذهب به الى مخبأ العفاريت، يمكنه على الأقل أن يتكلم معه بلغتهم.. يتوق لســماع لغة العفاريت، يتملكه إحســاس قوي لأن يتعرف على ملامحهم.. كم يبلغ طول أحدهم؟.. هل لا يزال العفريت الذي كان يحمل العالم على قرنه، على قيد الحياة؟.

لعن بخة العفريت في سره من إمتلأت بطونهم بالشبع.. الأمهات.. الأباء، ومن يشددون على أبنائهم أن يكونوا حريصين على السندويتشات وقطع الحلوى وثمار الفاكهة، ثم تذكر أعمال من كانوا ياتون بالنســـاء إلى الخندق ليلا و قد أقلعوا عن جلب الأطعمة معهم.. تحولوا إلى ذئاب جائعة، كل ما كانوا يجودون به عليه، لا يعدو عن كونه كتلة من لحوم الأجساد الفاسدة.. كانوا يعزمون عليه في سخاء بأجساد جائعة.

من الذي يلتهم من؟

الجوع.. يلتهم الجوعى.. تلتهم الجسد الشهوات.. تلتهم الشهوات روح الانسان.. ما تحت سقف الخندق مستباح، ثم يأتي المنسي وهو يمسح فمه من رائحة لحوم الأرانب والفراخ ليسأله عن أحجام العفاريت ولغتهم..:

قال له:

- سوف ترى.

خفق صدر المنسي بالأمل وهو يقول:

- ها أصدقك.. بشرط تثبت لي.

ماذا يقول لمأفون أبيه حشـــاش؟.. لو نظر بين يديه لرأي أباه يجمع بين أخلاق الحمير وأعمال العفاريت.. هل يصدق؟.

فضل أن يسايره حتى لا يوجع دماغه من كثرة الكلام في الفاضي، فقال:

- على أي حال.. اللي أعرفه عن العفريت

إن بعضهم فيه الجميل وبعضهم فيه القبيح.

لم تخف عليه نظرات المنسي المستريبة، فقال بسرعة:

- ساعات لسانهم بينقط سكر.

وساعات لسانهم بينقط خل.

ضرب المنسي الأرض بقدمه في سخط:

- أنت تكذب عليّ.

أقسم لكي يرضيه و صوته يكاد يختنق من ضغط الدموع المحتبسة في محجري عينيه، أنه ما عرف في حياته ســوى هذه البيوت الواطئة بما فيها من آباء وأمهات يضــمرون له المقت والكراهية، ومنهم رجال يأتون إلى الخندق مع نســاء أخريات، وزوجات يأتين مع رجال آخرين.

لم يستمع المنسي لكلامه، ولم يفكر أن يبحث في صدقه، فقال كأنه يخاطب نفسه:

- معنى كدا إن المخلوقات

دي لها بيوت.

لا يجد بخة العفريت أية فرصة يخاطبه فيها بالعقل أجابه بعد قليل في تهكم:

- أوعى تكون فاكر إنهم بيناموا

على البلاط زيي.

فوجئ به وهو يقبله راجيا إياه أن يأخذه إلى بيت من بيوتهم، وكان مندهشا من مشاعر الطفولة التي لا تزال تضرم النار في قلب صاحبه.

لكي يتخلص من عناقه، أوهمه بأن العفاريت تسكن في قصر بالقرب من شاطئ النهر، واقترح عليه أن يذهبا في الغد للسباحة أولا، ثم إنضم إليهما ابراهيم مليكة ورزق الله العجايبي وماجد الشرقاوي.

(9)

الفصل التاسع

تصاعدت ضحكاتهم في قلب العطفة، كانوا يتطاوحون يمينا وشمالا، لم ير أحدهم الست فضيلة حين رفع ذيل جلبابه وراح يتبول بجوار البنك الخشبي الذي يضع عليه منصور النجار مطارح الخبيز والطبالي.

اعتلت الدهشة وجه الست فضيلة.. ما الذي حدف جارهم خليل أغا عليهم؟.. هذه المرة الأولى التي تشوفه في صحبة ضيوف زوجها.. تابعته وهو يحاول السيطرة على قدميه في تعثرها أثناء توجهه صوب باب بيته، وكان هناك آخرون في تشعثهم، لا يثقون بأنهم يمشون في اتزان على الأرض.

عقب دخولها من الباب، تخلصت من الملاية الملتفة حول جسدها، خلعت البرقع عن وجهها، وكان المساطيل في الخارج لا تزال الضحكات والسعالات تمزق صدورهم.

أثار تخبطهم انتباه نعنوشة، فتحت الشباك، وقعت عيناها على عامل الدريسة الذي التقت به بعد ظهر أمس في الخندق، شجعته ابتسامتها، قال في وقاحة، مساء الأنوار يا نعنشة، انبسطت نعنوشة، ردت قائلة في ترحاب:

- تفضل عندنا يا أسطى.

لكزها زوجها بكوعه في جنبها موبخا:

ـ يتفضل فين يا كلبة، هو إحنا

فاتحين بيتنا غرزة للحشاشين؟.

الحاجة اعتماد زوجة السعيد أفندي عامل البريد والتليغراف، اهتمت بما كان يجري في قلب العطفة، دفعها السخط على المتخبطين في سيرهم لأن تدعو الله –في سرها- على كل من يحاول تلويث سمعة عطفة السقعان.

استدارت للخلف، حاولت أن تكبح جماح غضبها لتزيح ابنها حلمي بعيدا عن الإلتصاق بفخذها.. الولد كان مصمما على المشاهدة.. استغفرت الله وهى تفكر في ما تلقاه الست فضيلة، وتتساءل عن الدافع الذي يرغم مثل هذه المرأة الطيبة على العيش مع رجل لا تعرف إذا كان من العفاريت أو من جنس الشياطين.

ودت أن تتابع في هدؤ، غير أن الولد الذي كان يعاندها صمم هو الآخر على أن يقحم عينيه ويبص مثلها من شيش الشباك فكانت بين لحظة وأخرى تزيحه بعجيزتها، أو بدفعه بعيدا بكوعها.

من مصلحة الولد ألا تقع عيناه على مثل هذه الانحرافات، ومع شدة الحاحه وتصميمه فاجأته بقرصة من بين إصبعيها في وركه فشب على أطراف أصابع قدميه صارخا في ارتياع من شدة الألم.

تركته ينهنه غير مكترثة، وبين لحظة وأخرى كانت تتهدده بشكشكة جسده بالإبرة إذا شافته يلعب مع ابن هذا الرجل العفريت.

قاطعها حلمي مستنكرا بصوت متهدج:

- حرام يا ماما.. المنسي ولد طيب.

في تلك اللحظة، كان المنسى بإشارة من طرف عين أمه يضع الطبلية على الحصيرة، وحينما أمعنت النظر في وجه زوجها، بدا كأنه يعاني إرتجاجا في المخ، وإذ شعر بأنها مهتمة برصد حركته، شرع في الهرب من نظراتها، سعى للسيطرة على أطرافه بشكل كاد أن يضحكها، حاول جاهدا أن يكون متزنا، وأن يتكلم بلسان بعيد عن التعثر والتعلثم.

توهم بأنه نجح في التمويه عليها باستعادة الاتزان واليقظة، عدل الطربوش على رأسه،دفعه مرة أخرى للخلف، لم يلبث حتى دفعه للأمام حتى اخفت حافته جانبا من حاجبيه، رفع صدره بالانتفاخ، اهتم –حتى لا تظنه مسطولا- بسرد أقوال منصور النجار أمامها، وكيف تطاول على جلالة الملك بالشتائم.

خيل إليه بأنها غير معنية بالأمر، كانت تفتح كيس العيش الفينو وتضـعه على الطبلية، ثم فردت على سطحها لفافة مليئة بالكفتة.. باغتته بالسؤال وهى تضع إصبع الكفتة في فمها:

ـ مش عيب عليك يا ابو المنسي انك

تسكت له وهو يشتم مولانا اللي قال:

ستعمل حكومتي للقضاء على الفقر

والجهل والمرض؟

أجاب في سخرية:

ـ أنت صدقتي يا دكتورة كلام

جنابه.. دا كان بيهزر معنا.

إمتلأ حلقها بالغصص، كفت عن تناول الكفته، قالت بصعوبة:

ـ الملك بجلالة قدره ها يهزر

معانا إحنا يا معروف.

ابتسم في بلاهة، صمت لا يملك الرد الكافي لاقناعها، غطى على إضطراب مشاعره بأن رفع الطربوش عن رأسه، تشاغل بتنفيضه بآلية بطرف كمه، وضعه على الكنبة، ثم تربع على الحصيرة، جلس في مواجهة زوجته على يمين المنسى.

من آداب الطعام ألا يتكلم الإنســان وهو يأكل، أزاح ســيرة الملك وكلام منصــور وحكايات العفاريت وراء ظهره، تمتم في همس: بســم الله الرحمن الرحيم، تذكر أن شــرب الحشــيش فتح شــهيته، ســحب في هدوء لفافة الكفتة بالقرب من تناول يده، بدأ يدفع بالإصبع تلو الإصبع إلى فمه دون أن يتناول قضمة واحدة من العيش.

عقب فراغه من الأكل، تذكر أنه نســى أن يقول لها كيف كان منصــور النجار يغري الجيران بالانضمام الى حزب مصر الفتاة، لقد أقبل عليهم مرتديا قميص الحزب الأخضر، قال إنه ليس الناشط الوحيد في حزب يعمل على اسقاط حكومة النحاس باشا، لأنها وجهت إبرة بوصلة حزب الوفد من الاعتماد على كوادره في المديريات إلى وجهة قصر عابدين.

لم تعلق الست فضيلة، بل انشغلت في فتح علبة سجاير كوتاريللي، استخرجت سيجارة منها، راحت تدخن في صمت، ودون مقدمة اتجه المعلم معروف إلى المنسي متسائلا:

ـ ما كنش فيه بيض النهاردا في العشة؟

أخفى اســتياءه من تلك الاهتمامات الفارغة.. أبهذه الســهولة ينتقل تفكير أبيه من الحديث عن النحاس باشا للسؤال عن بيض عشة الفراخ؟.

لديهم عشة للدجاج، وعشة للبط، وعشية لتربية الأرانب.. لعن الله المهمة التي ألقاها أبوه على عاتقه، مالهبحياة الفراخ ورعايتها؟.. هل ســيقضــي حياته في حماية الكتاكيت ويحمي ضعفاء الفراخ من بطش الأقوياء؟.

أعطى لنفسه حرية التصرف والانتقام بالضرب وتأديب من كانوا يصعدون مبكرا على ظهورأخواتهم، في إنذار بأنهم يعدون أنفســهم للزواج، وعندما تسـتبد بهم الرغبة ويسـيطر عليهم الطيش في شكل جنوني، لا يملك سوى أن يعزلهم بالحبس الانفرادي في قفص من جريد النخل.

انتهز فرصــة وجود أمه في البيت، تركها في اليوم التالي تغســل الأواني النحاســية، وتعد الطعام وخرج ليجد أصحابه مجتمعين تحت عمود النور.

عرض ماجد الشرقاوي عليهم أن يذهبوا للاستحمام في الحمامات الشعبية التي أنشأتها الحكومة ليجد الفقراء مكانا للاستحمام وغسل الملابس.

سحب بخة العفريت المنسي من بين ابراهيم مليكة وحلمي السعيد عبد الشافي ورزق الله العجايبي.. همس في أذنه قائلا:

ـ تعال معي للبحر وأنت تشوف.

تحمس المنسي لكلام بخة العفريت، ظن أن أصحابه سيرفضون، لكنهم رحبوا جميعا.

على صفحة أمواه النيل المنبسطة، بدت الرؤوس مثل الكرات السوداء، كانت الأمواج تأخذها ترنيمة جديدة بربابة متعددة الأوتار.

منذ أن لمح المنسي الأمواج وهى تتهادى في سطور تلتمع تحت أشعة الشمس، هتف في فرح:

ـ يرقص البحر لي.. يضحك البحر لي.

لم يلاحظ احد ممن تلاعبت بأجسادهم الأمواج أن بخة العفريت كان هو الوحيد الذي يتلكأ في النزول، رأوه يجلس على قمة كوم مرتفع من الأحجار التي كانت تستعمل لتعلية الشاطئ إبان موسم الفيضانات.

آنذاك.. حدف المنسي جسده في النيل، رشرش الماء.. تطاير الرذاذ فوق الرؤوس، إنداحت من قلب الماء على السطح دوائر من أمواج تكسرت على صدور أصحابه.

وكان هناك رأس بخة العفريت، كأنه ينبت بين قطع من الأحجار الصغيرة، وهو لا يصدق أن هذا النهر يمكنه أن يزيل الأوساخ عن هؤلاء.

ثم بدأ يحدف ملابســهم يمينا وشــمالا.. قطعة وراء قطعة.. اهتم بتكويرها جيدا بين يديه، ثم قام بحدفها في امتعاض كمن يتخلص من وباء يخشى أن يصيبه بسؤ.

كانوا وهم يشتعلون بالغضـب ويستغيثون، يرونه يضـحك في هستيرية، واستمرت الأمواج تدفع بالملابس بعيدا، وهو يضـحك غير آبه بصـرخات من يجهشـون حتى ظنوا أنهم أغرقوا النيل بدموعهم.

شــاهدوا الملابس تتراقص في خبل الدوامات وهى لا شــأن لها بدموعهم ولا تكترث بعويلهم، تشـبّع بعضــها بالماء فرسـبت الى الأعماق، والبعض الآخر منها حاول ماجد الشرقاوي وابراهيم مليكة أن يستخلصانها من الغرق، ونجح المنسي في ا ستخلاص فانلة أحدهم، حاول موارة عورته بها، ثم توارى خلف سـيارة فارهة، هبطت منها سـيدة كانت تتابع ما يجري عن كثب.

من ملامح الوجه، استشف المنسى طيبة قلبها، وهى تتابع بنظراتها أعضاء الجسد الذي كان يستطيل، و ينكمش من شدة الكسوف.

اهتمت في حميمية بمســاعدته، عملت على ازاحة الخجل عنه بأن ألقت عليه شــالا من الحرير، تضــوع عطرا، ســارع في ادارته حول وســطه، فما كان منها إلا أن دفعته إلى داخل السيارة حتى لا يصاب بنزلة برد، وما لبث يصرخ ورأسه خارج السيارة:

ـ ملابسي.. ملابسي.

هونت عليه الأمر قائلة، وهى تدير عجلة القيادة:

ـ إذا كان على الملابس..

لك عندي شنطة مليانة.

ثم بصت في وجهه، مضيفة:

ـ كانت لإبني الذي غرق في البحر.

أصـيب بشـئ من الحيرة.. لا يعرف ماذا يقول؟.. هى أم ثكلى.. هو قلب مكلوم، عرته الرغبة في المعرفة حتى توهم أنه أصبح مثل الفضائح المخزية، غير أن رائحة العطر الذي يفوح من داخل السيارة، جعلته يفكر في التخلص من هذه الأحزان، إذ لا تصلح هذه النسمات العبقة إلا للسـرور إلى جوار أم رؤم، ظلت تدثره بمشـاعر الحنان، مبدية الرغبة في كل ما يمكن حتى تزيح عن صدره الصور الأليمة.

رجته –لفرط شعورها بمعاناته– أن ينسي ما يجري له على يد صديق خائن، حتى لا يتعب أعصـابها ويجعلها تبكي ثم ألحت عليه أن يأخذ راحته ويفرد جسـده على الكرسـي.. أن يفتح للسرور بابا في صدره، وكان هو يهم أن يستأذنها لكي تسمح له بالنوم في كرسي العربة الوثير.

مسـافة رمشـة عين كانت السـيارة تندفع إلى داخل فيللا محاطة بجنينة مثمرة بأشـجار المانجو والجوافة.. على جانبي الممشـى المؤدي إلى سـلم من الرخام الأبيض، إصـطف عدد من التماثيل لعروس البحر وهى غارقة في الجمال والعرى.

أين قصر بلقيس من هاتيك المجالي؟.

إنه قصر حقيقي، لا يشغله جان ولا يرفعه عفريت على قرنه.

طلبت إليه في حياء أن يأخذ دشا معطرا ريثما تعد له الملابس الذي يستحقها.

اختفت للحظات.. حين عادت كانت كمن ولدتها أمها، صـدر نافر، عجيزة بيضـاء مستديرة، في اكتساح مثير، اقتربت، تشاغلت بفك عقائص شعرها، تحت سياط الانبهار، تأكد أن هذه أول مرة يرى فيها إمراة يسترسل شعرها في ذيل طويل حتى أخمص قدميها.

لم يصـدق أنه شـعرها إلا بعد أن فركه بين أصـابعه.. توهم أنه صـدرت عنه موجات كهربائية خفيفة، وحين جذبها من خلف، اسـتدارت قبالته، رآها تلتحف بجدائل الشـعر، أدارت بعضـا منه حول ثدييها وبالقرب من صـرة البطن وحينما التصـقت به، راح يفكر في الغيلان وأشكال المردة وما يمكن أن يكون مستخفيا في هذا المكان.

ضــغطت على مفتاح معدني، اندفعت خيوط الماء بغزارة من رأس الدش، دغدغ انثيال الماء مشاعره، ند عن صدره صوت، توهم أنه قال: هذا الوقت لا يصلح للتفكير في الانتقام من بخة العفريت.

ابتسمت له، تساءلت:

- أنت تكلم نفسك كثيرا.

صمتت لحظة، ثم أردفت:

- أنا الأخرى اتكلم مع نفسيكثيرا.

أدارت ذراعيها حول ظهره، رجته أن ينســي ما جرى، لأنها تود أن تعترف له بحقيقة أمرها.. هى إمرأة وحيدة، تخشــى طوال عمرها أن تغرق مثل إبنها في النيل.. لأجل ذلك، رجته للمرة الأخيرة –وهى تفتح مياه الدش على الآخر- أن يعلمها السباحة!

(10)

الفصل العاشر

كانوا يترقبون مروره عليهم كل يوم، في نفس الميعاد.. مرضـــي.. أصـــحاب عاهات.. جوعى، من غيره يســمح لهم، أويســتمع لكلامهم؟، صــاحوا. وزاطوا.. رقصــوا في غبطة وسرور، عندما لاح لهم قادما على البعد.

أقسموا بالله أنهم ترقبوا خروجه من عيادته الكائنة بالقرب من شارع قلادة، وجد نفسه محاطا في زفة من النسوان وكبار السن، أقسموا مرة أخرى أن الانتظار كاد أن يقتلهم.؟

قاطعهم في استغراب وسخرية:

ـ ليه بس تتعبوا أنفسكم؟..

كنتم اطلبوني بالتليفون وأنا

آجي بسرعة.

أعدّ نفسه سلفا –كشأن كل يوم- لتوزيع كروت صغيرة عليهم، كتب عليهااسمه، ورقم تليفون العيادة، وكان هو اول من يعرف أنهم لا يقرأون، وليس بمقدور أحد منهم أن يدفع مبلغ عشــرة مليمات ثمن المكالمة، وفي نفس الوقت لا يعرف لماذا كانت تبســطهم عملية توزيع الكروت عليهم؟.. ولماذا كلما منعها عنهم، ألحوا في طلبها؟

أما بخصــوص التليفون فلعله يذكر أنه منذ أن ادخله إلى عيادته عام 1930 حتى تاريخ اليوم من عام 1950 فإن يده لم تمتد إليه في طلب أي رقم بنفســه.. ليس له مصــلحة عند احد، من يريده في كشــف منزلي يجده يرفع الســماعة ويســتمع إليه وهو مطمئن على أن المكالمة لن يحاسب عليها.

وإمعانا في الحرص على عدم التبذير، قام بحبس قرص التليفون بأرقامه، بقفل صــغير حتى لا يستعمله تومرجي العيادة، وفضل أن يظل هناك لتلقي المكالمات فقط.

لقد أراح دماغه من ثرثرة لا تعود عليه بالفائدة، خاصة وأن غالبية المترددين على العيادة كانوا لا يملكون تليفونا، وليست لديهم أدنى فكرة عن كيفية استعماله.

أما الذين يملكون التليفونات من الأسـر الموسـرة، فقد كانوا حريصـين على التمسـك بمظهرهم الاجتماعي، ولا يقبلون التحدث معه، لا في التليفون ولا في الكنيســة، حتى ولو فتكت بهم الأمراض، وإذا تصــادف وجلس بينهم يصــلي على دكة الكنيســة، أشــاحوا عنه، وكانوا يتغاضون عن مصافحته.

عادة، يفضل الشوام والأرمن واليونانيون وأغنياء القبط، التردد على عيادات الدكاترة: عيسى حداد.. إديمونعاقوري.. إدجار عاقوري.. حكمت أو ضه با شا، لا لأنهم أشطر من الدكتور سعد بطرس، بل –حسب ما يدعون– أن أسنان هؤلاء ليست نظيفة فقط، بل لأن أياديهم لم تتلوث بالعمل في أجساد الفقراء والمتسولين.

على الرغم من إدراكهم أنه حكيم ماهر، يعرف كيف يشخص الداء ويصل للدواء، إلا انهم كانوا يعترضون على سلوكه الأحمق وعلى هيئته وهندامه التي لم يهتم بها أبدا، وكثيرا ما كان يتصدى لهم في سخرية:

ـ مظاهر الممثلين التي تفتنكم،

لاتتفق مع مهنتي.

في أحاديثهم الخاصة، كانوا يُشهرون بعيادته ومحتوياتها.. غرفة الكشف عبارة عن ترابيزة مطبخ، بسط على سطحها ورقة قديمة من جريدة المقطم، استعمل الترابيزة كمكتب، ووضع على طرفها عدة كتب في الطب باللغة الإنجليزية، بجانب الكتب تليفون بلون البلك، وكرسي خشن من جريد النخل يجلس عليه، في مواجهته، و ضع دكة خشبية كالحة اللون، كانت تستعمل لجلوس المرضى في أثناء انتظاره، وعندما يأتي، كانوا يستلقون عليها لتوقيع الكشف الطبي عليهم.

من المهام التي ألقيت على كاهل التومرجي، نظافة العيادة.. غسيل الدكة –ضروري– يوميا بحمض الفنيك، ثم بعد ذلك يمارس أعمال المحصّل الذي يستقبل المرضى القادمين من الريف للعلاج، وهو مهتم بالحديث عن الجبنة الفلاحي وآخر أخبار الفطير المشلتت.

لا يتأخر الدكتور عن الو صول للعيادة في تمام التا سعة صباحا، يندهش المر ضى لأنه منضبط منذ عشرين عاما على تمام الساعة التاسعة، ينشغلون بتناول سيرته قبل مجيئه، من المؤكد أن الترس في الساعة معرض طوال تلك السنين للخلخلة أو التلف، إنما هو يأتي في نفس الميعاد – صيفا.. شتاءا– دون أن يحصل له عطل، ثم كيف كان يعرف الوقت وليس في معصمه ساعة؟

عادة، يخرج من العيادة بعد العصر، لا ينسى بعد آخر كشف أن يغسل يديه ياليزول، لا يجففهما بفوطة وإنما يترك امر تنشيفهما للهواء.

يتوق للانطلاق على شاطئ البحر، يملؤه الشعور بالارتياح لأنه أدى عمله بنزا هة و ضمير مع مر ضاه، من حقه أنيستمتع برائحة الهواء المشبع بالزعتر وأنفاس الآس.. لكم كان يتمنى أن يطوح بطربوشه بعيدا عن رأسه، ينتهز اللحظة التي يتمكن فيها من خلع البنطالون، وان يظل يجري على الشاطئ، عساه يفيق من غيبوبة رائحة البنج ومن عرق المرضى، ولدغات البراغيث الراقصة على ملابسهم.

تسارعت خطواته على سلم العمارة، وثب وهو في السبعين من عمره كشاب في عنفوانه، هوايته المشـي لمسـافات طويلة، لكنه في كل مرة لم ينجح من رذالة الحوذية.. دائما، يسـوقون عربات الحناطير الى جواره، يلحون، يبدون الاسـتعداد لتوصـيله إلى ما يشـاء.. يكتفي بهز رأسـه في امتعاض، يسـتعطفونه، أنهم من صـباح ربنا إلى ما بعد العصـر لم يركب معهم زبون يوحد الله.

بعد أن فشلت جميع محاولاتهم، يقول أحدهم في استعطاف:

ـ طيب.. إن ما كنش علشان خاطري

يا دكتور، إجبر بحال الحصان اللي

ما كلش من الصبح الا حزمة برسيم واحدة.

آخر ما يزهق من ملاحقتهم، كان يأمر كافة الحوذية الموجودين في ميدان المحطة بالوقوف أمامه في صف واحد.

وجد المنسـي نفسـه يندس بينهم، انتهز بعض الصـعاليك والمتسـولين الفرصـة لكي يحشروا أجسادهم في الصف.. يبص الدكتور في وجه الصف في شك، سأل المنسي:

ـ أنت عربجي؟.

لم يسمع إجابته في لغط الصف الذي كان يحصى عدد أفراده.. سمعوه يقول: العشرة في قرشين، يبقى الحاصل عشرين قرشا، ثم راح ينقد كل منهم نصف فرنك شريطة أن يخلوا بينه وبين الطريق، وهو يقول شكرا لكل من وضع النصف فرنك في يده.

اكتشفوا أن فرصتهم الوحيدة للتندر والضحك في كلمة: شكرا، لم تكن سخريتهم بعيدة عن أذني الدكتور، مادام البحر سرابا، وطيور الماء سرابا فيجوز لأي سكير أن يصافحه وهو يقول: دكتور سعد شكرا، وأن من حق أي حوذي يسحق الورود بحوافر الخيل أن لا يصدقه حين يقول إن المشي على الأقدام صحة لبدن الإنسان.

بمقدوره، كما يجري على الألسنة أن يشتري عربة روزرايس أو كريلزر، لكنه لا يتفق معهم حول ما نسبوه إليه من البخل، لدرجة أنه ترك البخل يأكله، ولم يبق له إلا على طربوش متسخ الحوافي وبدلة كحلية اللون، زعموا أنها صاحبته منذ أن كان طالبا في السنة النهائية بجامعة الملك فؤاد الأول.

تركهم يتندرون، بل وقد اعتاد أحدهم أن يعترض طريقه ليهاجمه قائلا وهو يسب الظروف التي أعطت الحلق لمن ليست له أذنان.

وفي مسألة علاقة الرجل بالمرأة، ادعوا أنه مخصي، وإن كان –بسلامته– يدعى أنه ليس عبدا للغرائز البهيمية وانه سعيد في الاستمتاع بصحته، لا سلطان لرغبات الجسد على عقله.

كانوا يجيبون، على أسئلتهم قائلين:

ـ طيب يا دكتور شكرا.. بكره

صحتك ياكلها الدود من غير

ما تدخل دنيا، ولا يعرف قلبك الفرح.

المشــكلة، أنه كان يتعامل مع أناس يزينون له في إغراء طريق الغرق في تخمة ورفاهية ركوب الحنطور ويسكثرون عليه أن يمضي في بساطة حتى ينعم بدبدبة قدميه على الأرض.

يلتفت إليهم في دهشة قائلا:

ـ واللا يعني إكمن الرب أعطى

لنا نعمة المشي على الرجلين

بالمجان، نقوم إحنا ما نقدّرش فضله.

متى يدعونه وشــأنه، لكي يجلس هناك على حجر النيل، أو يترجل إلى جنينة شــجرة الدر؟.. هذه اللعنة تصــيب صــدور من يعيشــون بجوار القرود والنســانيس.. القرود من الرجال والنساء لملموا أ سمالهم.. رددوا وهم يحيطون به في ضحكات و سعالات ملوثة بالدم:

ـ نسانيس، نسانيس بس بشرط

تكشف علينا.

ابتسم في رثاء، إن كان على الكشف فهو يجريه.. المشكلة: من الذي يستطيع شراء الدواء؟!

أدار وجهه ناحية ميدان المحطة، من مكانه على الرصيف رأى أطفالا في حجم الغربان السوداء، التصقوا بصدور الأمهات، في أفواههم حلمات الأثداء الضامرة.

من توهم أنه أثار شفقته، بادر حتى لا يدع الفرصة تنفلت من بين يديه، في خضم التلاطم والمزاحمة والتدافع بالأيادي والأقدام، فك بسرعة عقدة اللباس التحتاني، ورفع ذيل الجلباب.

بص الدكتور إلى سؤتيه، وضع الخصيتين في قبضته، تؤكد الحالة وجود ورم في الخصيتين، أمره:

ـ قل: آه...

ردد كافة المتزاحمين حول المريض:

ـ آه...

ثم بدأت السماعة تؤدي عملها، تحركت على الصدر، استقرت ناحية القلب للحظات، صاح خلالها:

ـ خد النفس.

أخذ الجميع أنفاسهم مع المريض.

قال:

ـ طلّع النفس.

أطلقالجميع أنفاسهم.

قال:

ـ إنهج.

نهج الجميع حتى سعلوا، بصقوا، أحمرت العيون.. تركهم الدكتور يبصقون أوجاعهم، انحنى على علبة سجاير فارغة، دوّن عليها –كروشتة– كلاما بالانجليزية.

القادمون من سفر، ظنوا للوهلة الأولى أن هناك حاو تجمع الناس حول ألعابه السحرية، سمعوه يطلب من المريض قيمة الكشف قبل أن يسلمه روشتة العلاج.

دس المريض يده في قعر جيبه وملامحه تنضــح بالمعاناة.. عثر على قرش تعريفة، بينما كان الدكتور مشغولا بتوجيه التحذير لمن يستعد لأخذ دوره في الكشف:

ـ أنا كشفي خارج العيادة عشرة قروش،

تعطوني بريزة فضة أسلم لكم الروشتة.

دائما كان يغلبه الجميع ببؤ سهم، إنهم يقهرونه ببؤ سهم.. لا مكان للأحلام التي كانت تغازل أمواج النيل والطيور والأزهار.. دائما يرغمه انكســار القلب بالتنازل.. يتســاهل دائما.

وحين كشفت له إمرأة عن ثدييها، شتمها بكلمة قذارة، فأصرت على خلع أسمالها حتى ترغمه للكشف عليها قبل أي مريض آخر.

أ ضطر أمام التهديد بالعرى الفا ضح أن يدفعها بعيدا عن العيون ناحية بير سلم لإحدى العمارات القريبة من ميدان المحطة.. صــاح في وجهها آمرا وهى تهم بإلقاء جســدها على البلاط:

ـ نامي على ضهرك وإفردي رجليكي.

انحنى على جسدها، وضع السماعة بين ثدييها.. قال لها:

ـ قولي: آه...

دقات القلب خافته.. لا شئ أمامه سوى المحاولات العاجزة.. ربما كان من الممكن.. ربما كان من المستحسن أن يضغط بيده على البطن، على الرأس، لعل شررا يندلع من عتمة الظلام الذي داهم بير السلم.

هناك وجهة نظر محتملة جدا، فهي إذ تعبّر عن المعنى البيولوجي الطبيعي والفسيولوجي قد تصلح في ترميم هذا الجسد المنطرح على الأرض.

غير أن تلك المحاولة لم تمده سوى بأشباح شائهة من الحاضر، فجعل يعيد النظر في ضبط حركة يديه، مع زيادة تزويد أحاسيسه بالتناغم مع الحالة التي عليها مريضته.

تساءل كمسيحي مؤمن: أليست أعماله هذه تجمع بين المسألة اللاهوتية المعروفة عن علاقة الخلاص بالمحبة، باللطف الإلهي، وبين الخلاص بالأعمال؟

شخط في المرأة قائلا:

ـ انهضي على رجليك.

اضطربت المرأة وهي تجري على قدميها، غير مصدقة أنها تخلصت من الأوجاع.

(١١)

الفصل الحادي عشر

رتب أفكاره بحيث تكون هذه آخر ليلة يقضيها في هذا المكان، ستتزوج هيلدا في ربيع هذا العام، حمل إليه أخوها ابراهيم مليكة هذا الخبر الفاجع، ضج صدره بالصراخ: لماذا تلعب الأقدار به ولا تكون هيلدا من نصيبه؟

الآن.. ليس هناك ما يستحق أن يحفظه في قلبه، ولا أن يستعيد ذكرياته، غير أنه تذكر أن في السحارة شيئا قد يعود عليه بالفائدة.

فتحها،إختار ثلاثة أعداد من مجلة المصور، دسها في الحقيبة المدرسية، قال: لعلها تعينه على ما سيلقى في مقتبل حياته، اهتم بأن يحافظ على العدد الذي حمل غلافه صورة المقاتل المصري، بطل الفلوجة، المعروف لدى اليهود بالضبع الأسود.

حاول إغلاق الأذنين حتى لا يسمع فحيح أنفاس أبيه وهمساته في شك قبل أن يمارس العمل الذي شرب لأجل الاستمتاع به الكثير من الأنفاس، ولعق بلسانه العنبر:

ـ أنت متأكدة إنه راح في النوم.

هل من المعقول أن يجد في النوم الراحة؟.. محاولة نسيان ما جرى في حياته من المستحيل.. كيف يستطيع النوم أويغلق السمع والبصر والفؤاد؟.. هو ذاته لا يحب أن يسحب الغطاء على مشاعره.. يحب أن يظل صدره عاريا.. على القلب تقبع كمية هائلة من الأمنيات المهيضه الجناح، بكل طاقة العجز والإنكسار، إنتفض واقفا أمام الله، سأله المعونة، رجاه أن يأخذ بيده، سمع صوتا مضفرا بسبائك من النور: إذا طلبتني تجدني.. من يتحمل مشقة الخروج إليّ أرفع درجاته....

سالت من عينيه الدموع، بصوت متهدج، طلب إلى رب الأعالي أن يشد أزره، حيث سيمضي إلى ما لا يعرف، باب الهرب مفتوح أمامه في إغراء، ليس أمامه بابا سواه، ما أجمل أن يجد نفسه منطلقا تحت سماء معشو شبةبالإخضرار، نجومها وورودها تفوح بالعطر.. ألمهم، أن ينطلق في الصباح من تابوت الأيام المشنوقة.. ليبتعد عن خيبته في الأصدقاء، إذ ربما ينسى فشل الإلتقاء بإنسانة تحبه.. إنسانة، تضحى من أجله، وتصمم أمام أهلها على أن يكون هو بالذات زوجها.

يعود من جديد فحيح أبيه مثقلا بعدم الإطمئنان:

ــ باين لسه ما نمش.

تـشاغل عن مـشاكل أبيه مع أمه بمراجعة خطة الهرب، تفرض عليه الظروف أن يختفي لبعض الوقت في الخندق الذي كان مخصصا لإيواء الفارين من مقاتلات هتلر الجوية وتصدي طائرات الحلفاء لها.. في الخندق ستكون الفرصة متاحة للنوم في أمان، لربما يطرح الأمر للمناقشة مع بخة العفريت، لعله يجد عنده ما يساعده للخروج من تابوت الأيام المشنوقة.

الشوارع التي قطعها صباح ذلك اليوم، كانت تهجس بالخوف من انتشار وباء الكوليرا، نبه المـسئولون في المديرية بعدم تناول الخـضروات والفاكهة القادمة من مديرية الـشرقية، عربات النقل المكدسة فشل سائقوها في إيجاد سوق لها، إضطروا للتخلص منها بإلقائها في الشوارع والغنيمة بالفرار حتى لا يقبض عليهم ويقدمون للمحاكمة.

قال الأهالي يا روح ما بعدك روح، هذا رزق حدفه ربنا علينا.. هناك من كانوا يلتهمون في جوع ونهم، وهناك من حملوا أقفاص البلح وجروا بها ناحية بيوتهم.

ذلك كله لم يثر إنتباه المنسي، إذ حطت عيناه على العربة المخصصة للقمامة حيث تحولت إلى وسيلة لنقل من أزهقت أرواحهم الكوليرا.. لم يكن وراءهم أخ أو إبن أو زوجة، كأنهم مقطوعين من شجرة، أو أنهم كانوا فروعا من شجرة لا تحب أن تمتد إليهم ظلالها.

ما يقطع بالجزم في أمره من شـبعوا من أكل البلح، أشـاحوا عن العربة، إهتم بعضـهم بإخفاء الأنوف وراء الكفوف واحتباس الأنفاس في الصـدور مع عدم الشـهيق للحظات تمرخلالها عربة، يجرها حصانان إستراليان في بطء كان يستوجب السخط و صب اللعنات على الحوذي المتكاسل.

مضـى وحده يشـيعهم، صـندوق العربة مفتوح من الخلف، لمس بكفه عدة رؤوس كانت مدلاة من طرف صـندوق القمامة، صـافحت يده قبضـة لعلها تصـله بقلب لا يزال ينبض، قال هذه أقدام لرجال لن تعرف المشي بعد الآن.

ظل يمشي حتى وجد نفسه في الجبانة، هناك.. قابل الحوذي رجلا جاء في ا ستقباله من قلب المقابر، لم يدر بينهما أي نوع من الكلام، إنما كانا يتخذان من الإشـارة بالرأس معنى للتفاهم، تعاونا معا على حمل الجثث، إهتما بحدفها في أفواه المقابر، مع مراعاة عدم التباطؤ والإنتهاء من ذلك الأمر على وجه السرعة، دونما إغتسال، دونما صلاة، ولا آية قرآنية تليت على الموتى.. الله وحده يعلم إذا كانوا كلهم م سلمين أم أن فيهم م سيحيين، صار الكل في مقبرة واحدة.

قبل أن يتأهب الحوذي للإسراع حتى يأتي بحمولة أخرى، ظهر عدد من الرجال، كانت مهمتهم أن يرشـوا على الجثث أجولة من الجير، بعد أن توصـلوا إلى أن الجير هو الوحيد القادر على حماية الأحياء من انتشار العدوى.

كان منقبض النفس حين استدارت العربة لتأتي بحمولة أخرى من الإستباليا.. من الذي حمله للسير على هذه الطريق؟.. هل يتلقى العذاب على جريمة ارتكابها في حق احد؟.. ربما يكون مضطرا للكذب على أمه في بعض الأوقات.. هل معنى ذلك أن يستحق العيش في زمن الأوبئة؟.

أضحت روحه مثل بحيرة تعصف الرياح بأعماقها، قد ينزلق جسده على طرف موجة تصعد به أو تهبط في تجعد، نجح في الهرب على جناحي نسمات بليلة، داعبت وجنتي هيلدا.. نظر اليها في غيظ، توهم انها خانته، سرعان ما استولى على غضبه، من الأفضل أن يبدي لها الإعجاب بقصة شعرها في استدارة جميلة من عند القفا، هم أن يكلمها أثناء ذهابها إلى دكانة عم ياسين البقال.

فجأة، اقترب منه أناس كثيرون كانوا قدموا من شارعي السكاك وسيتي.. ضاعت عليه الفرصه.. مشكلته دائما مع الفرص المجهضة كثيرة، لكنه لا يحب أن ييأس، ولن ييأس.

لن تأتي الفرصة إليه، إنما عليه أن يذهب لتحقيقها، عدم البت بصرامة في مستقبله جعله يشك أنه غير جاد، وانه اكتشف سذاجة خطته، بالذات أسلوب تنفيذها، إذ أنه لو ذهب للتشاور مع بخة العفريت في الخندق، فلن يكون بعيدا عن عيني أبيه، إنه يعرف المخابئ كلها والخنادق، وإذا كان باله رائقا ومزاجه عال العال، يمكنه رصد عدد النجوم التي تسقفها!

ــ بأقول لك.. والله هو راح في سابع نومه.

هو في اليقظة كما هو في النوم.. يفكر.. تجول بين أرجاء بلدان كثيرة، كشفت له دروس حصة التاريخ والجغرافيا أهم محاصيلها وتضاريسها، التوجه إلى هانيبال عاصمة التبت لن يجشمه أدنى مشقة، من هنا، من على الفراش الراقد عليه تحت السرير مشيا على الأقدام، لا يندهش، لا يستصعب الأمر، فكل ما يتمناه يتوقف على العزيمة والإصرار.

لا شأن للناس هناك بصغائر الأعمال.. لا يعنيهم سوى الزهد في الحياة الفانية، قال هذه الفرصة الثمينة التي سيتمكن فيها من ممارسة هوايته، اقتطع قبضة من طين الأرض، وعندما شافوه يحولها إلى شكل طبلة، أمروا بإخراجه من مملكتهم.

لا مجال لليأس.. أمامه مساحة شاسعة في بلاد الإسكيمو، استقبله الأهالي بحفاوة بالغة، غير أنه أصيب بالغثيان والتقزز عندما رآهم يستخرجون من تحت الثلوج نوعا من الحيوانات النهرية ويأكلونها نيئة بدون طهي أو شواء.. لايمكنه التغلب على هضم العادات غير المألوفة لديه إلا إذا دق على طبلته، لعله يستخرج منها أشعة دافئة، تذيب الثلوج وتبعث على الحيوية والمرح، بيد أن أصابعه تقلصت وأصيبت كفه باليبوسة.

على صــفحة الدرس الثاني، رف بجناحيه على نهر دجلة، غمس فمه مثل نورس في مياه الفرات، لم يحط بقدميه على الشاطئ، وإنما أخذ يحلق بعيدا بعد ان رأى الناس هناك ينقسمون إلى عدة فرق مقاتلة، المقاتلون على ضـفة دجلة أخذوا وضـع الإسـتعداد للهجوم، ما كان يثير الحيرة والدهشـة أن من رفعوا الرايات الخضـراء والرايات السـوداء، اهتموا بأن يكتبوا عليها عبارة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كانت قد اقتربت به خطواته من باب الخندق، تذكر انه دخله منذ حوالي ثلاث سـنوات عقب آخر غارة جوية شنتها دول المحور، كان هناك دائما بخة العفريت، لا يوجد مكان في الخندق يستغني عن خدماته، يشيل لأم مريضة طفلا، يوقد لأحدهم وابور الجاز، يضع براد الشاي على النار، يتناول الطعام مع أكثر من عائلة، كل من لديه شئ جميل من الأطعمة كان يوزع على الجميع في حب وسـماحة، بقايا المأكولات كانت تترك له، وكان يرى فيها أنها نعمة نزلت عليه من السماء قد تشبعه لمدة ثلاثة أياموقد تغنيه عن خطف السندويتشات من أيدي أصحابه.

حين تمر الأيام بدون غارة واحدة،يبدأ الجوع ينهشه بأنيابه، كان يجيل بصره في السماء، لعله يكتشف مروق طائرة واحدة تكون قد ابتعدت عن مرمى نيران المدفعية المضادة، وإذ لم يجد ما يسـره، فليس امامه سـوى الإتكاء على الله، فقد كان عشـمه في وجه الله كبيرا، وما يلبث أن يصيح:

ــ يارب.. إبعث الفرج من عندك!!

في تلك الآونة، وهو يبعد الغطاء عن وجهه، رأى المعلم معروف وهو ينزل من على السرير، أشعل سيجارته الثانية من رأس لمبة لجاز، اجتذب نفسا منها، كبح غيظه وراء السؤال:

ــ أنت صاحي يا ولد.

لم يجب المنسي، فعاد صاعدا على السرير وهو يرسل الأمنيات مع أدخنة السيجارة:

ــ عسى الله يكون هتلر دخل

البلد وكسر شوكة الإنجليز.

ليس له شأن بأبيه ولا في كراهيته للإنجليز وتفضيل الألمان عليهم، لأنهم كانوا يكرهون ما ينطوي عليه اليهود من خبث ودهاء.

ما شأنه بهذا كله؟.. هل سيزرع الألمان أو الإنجليز في رأسه شعرة واحدة بعد أن دفعه أبوه بين يدي الأسطى ربيع لكي يتعلم الأدب، ولا يعود للتفكير في حياة محمود اللبان المسحراتي وطبلته؟

همس في أذنه الأسطى ربيع ويده تجري بالموسى على رأسه:

ــ سيبك من طبلة المسحراتي.. قدامك خطوة واحده لتدخل

الأزهر الشريف والناس يقولون لك: يا مولانا.

ليست مشكلته في الأزهر، وإنما في المشي برأس زلبطة، لا يحتمل أن يقول له أحد من أصحابه: يا أقرع...

كان أبوه لا يزال يبحث عن متنفس لأوجاع جسده... من يطفئ لهيب رغباته؟.. احتدم بين أمه وأبيه الجدل، انتهى الجدل بينهما عند نقطة الاختلاف على تدبير مكان مناسب له..:

ــ قلت لك أكثر من مرة.. تعالى نريح أعصابنا

ونعمل له أوضه جنب عشة الفراخ.

فتح عينيه على اتساعهما، استراح للحملقة المنتشرة تحت السرير، لم يعد يرى أصابعه.. كيف يهتم برؤية أصابعه وهو على حال يقشعر البدن منها؟

أين جنود الملك سليمان من العفاريت؟.. لعلهم يستجيبون لو جيب قلبه فينقلونه من هذا المكان كما نقلوا عرش بلقيس من سبأ.

انتابت أبوه نوبة من السعال، كان يكح ويقذف بالبصقات على جدران الغرفة، تستاء أمه من سلوكه، لكي يغيظها، يتعمد أن يقذف بالبصقات من جديد.

سـرعان ما يتحول لون البصـاق إلى الاصـفرار، يبدو في الصـباح مثل حدقات العيون الميتة، تتركها أمه لبعض الوقت حتى تجف، فتبادر بكحتها بقطعة من الصـفيح، وبعد أن تزيل آثارها، كانت تهتم بغسل المكان بالجاز،أو ترشه بحمض الفنيك.

وضـع إصـبعيه في أذنيه حتى لا يسـمع الأصـوات التي تدور مثل الثأثأة والنونوة على سطح السرير، حسبه أن يدور في دروب عالم ما تحت السرير.

فتح عينيه على اتسـاعها ليسـتخرج جسـد هيلدا من بين زحام المتجهين إلى الكازيون السنوي.. لا يدري عندما صارت أمامه –لماذا صرخ في استهجان؟.. تحضرين أمامي بهذا الجسـد الدافئ لتتفرجي عليّ وأنا أجلد به روحي.. لا، أنا سـوف أقطع قلبي إربا قبل أن ألمس بشرتك الناعمة.

لن أكف إلا إذا قلت لي: ما الذي يدفع أبوك لأن يعقد قرانك على ابن عمك؟.. هل لأن أباه من كبار تجار الذهب في المدينة؟.. ليكن في علمك، لن يتوقف نبض قلبي، وكل قطرة تحدرت من دمي على الأرض سـتنبت عفاريت من جنس عفاريت الملك سـليمان، حينئذ سيكون صوتي ذهبيا، ولساني ذهبيا، وعقيرتي تشع من شدة لمعان بريق الذهب.

أما مشـاكلي مع القفل والرتاج والمغاليق، فلم أعد أكترث بشـئ من هذا، بعد أن صـار المفتاح في يدي.. لن أكون مثل إسـفنجة تمتص من ماء البحر.. أنا لم تعد تشـبعني أمواه البحر، لدى فرصة ثمينة لكي أنسف الجزء المتبقي من عقيرتي المتآكلة.

لا أدري لماذا استوقفني أحد رجال الشرطة اليوم وكنت أحاول أن أثبت له حسن سيرتي وأخلاقي، فقال لي بصوت حاد:

- من أدراني انك لم تقتل الفتاة

التي جاءت معك أمس؟.

رأيت الجحيم فاغرا فاهه، أدرت وجهي ناحية الحائط، تأكدت من أن ظهري كان مكشوفا، وأن أولاد تجار الذهب يتزوجون من بنات تجار الذهب.. إذاً، كنت على حق وأنا أسعى للحصول على قوة سحرية تبطل ذلك المنطق، كما فكرت في امتلاك تعويذة تغمض عين الشمس حتى تلقي على هؤلاء سحابة من الظلام، وتسلم حياتهم إلى ليل سرمدي.

حثثت خطاي حتى لا أتخلف عن ميعادي مع صاحب المكتبة التي تبيع الكتب الأزهرية.. التقيت على الطريق بإبراهيم مليكة ورزق الله العجايبي.. كنت اعرف أنهما باعا أمام بوابة كنيسة الملاك صلبانا وقلوبا شغلتها أياديهما من خوص سعف النخل الذي كانا يجلبانه من مزرعة الدكتور سعد بطرس.

قطع إبراهيم مليكه عليّ الطريق، متسائلا:

- إلى أين؟،

وجدتني منطلقا دون ترتيب مسبق في سرد حكاية عن أمي التي ولدت في بور سعيد، وأن لها قريبا قادما على ظهر سفينة ستصل بعد عدة دقائق إلى شاطئ البحر الصغير، وأنني مضطر لكي أسرع في استقباله.

انفجر رزق الله العجايبي في ضحكة عالية، بينما دفعه إبراهيم مليكه لكي يبتعدان عن طريقي وهو يكاد يوجه إليّ اللعنات:

- أنت فظيع.. أنت أبشع من بخة العفريت..

لا تريد أن تكف عن الكذب.. أنا لا أريد

أن ألوث أذني بأكاذيبك.

لماذا هذه الإهانة؟.. لماذا لا يصدقه الآخرون؟.. إذا كان هو بذاته بات يصدق أن أمه من مواليد بور سعيد.. هل يستكثرون عليه أن يكون له أقارب في بور سعيد؟!

شارف على الاقتراب من شاطئ البحر، عانقت عيناه خفق الأعلام على أشرعة السفن..

تريث على مهل، ساءل نفسه: هل من الأفضل أن يختصر الطريق من أوله، أم يبدأ والبحر مفتوح الصدر أمامه في تنفيذ فكرة الرحيل؟ ... ...

انتبه على صوت أبيه المفعم بالسخط والعداء من على السرير. :

- لسه ما نمتش يا ابن الكلب!!



صدر عن سلسلة إبداع الحرية

1	بيت النسيان	قصص	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
2	عزف على أوتار الحب	شعر	محمد حسني
3	ثمة شيء في يدي	شعر	فيصل عبده
4	همس القلوب	قصص	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
5	الجانب الآخر من النهر	قصص	علي الفقي
6	أعلى من كل الناس	قصص	فريد محمد عوض
7	المنصورة تصنع التاريخ	مقالات	فؤادي حجازي
8	حاولت كثير	شعر	شكري رمضان
9	ديوان « ابن الشيخ»	شعر	فاروق أحمد الشيخ
10	إنهم يقتلون الأسرى	شهادات	فؤاد حجازي
11	مقام الصبا	رواية	محمود عرفات
12	حكاية العمر	شعر	سيد مسعود

13	طالع يغني	شعر	علي عبد العزيز
14	أحلام ترانزوستور	قصص	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
15	ورق حائط	قصص	محمد عبد السميع
16	فصلان من كتاب واحد	شعر	علي عبيد
17	على شاطيء الجبل	قصص	محمود عرفات
18	صهيل المحارم	رواية	فؤاد حجازي
19	ساعات الانفجار	رواية	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
20	زهر الحناء	رواية	هيام عبد الهادي صالح
21	بخور الذهب	رواية	السعيد أحمد نجم
22	الولد اللي	شعر	محمد عزيز
23	في وجه الريح	رواية	فريد محمد معوض
24	وطاويط	قصص	أحمد محي الدين خليل
25	الحب عندي	شعر	محمد حسني
26	البلد	مسرحية	ربيع عقب الباب

27	أحلام بالكمبيوتر	دراما إذاعية	د. صلاح ترك
28	ضحكات موجعة	قصص	السعيد أحمد نجم
29	سفر الحرب والمقاومة	دراسات	فؤاد حجازي
30	فوق المظلة	قصص	علي الفقي
31	مشمش الرابع عشر	رواية	محمود عرفات
32	نعي الغلابة لبعضهم	شعر	علي عبد العزيز
33	آخر عود في الحصيرة	شعر	محمد طه شلبي

❋ من أهم الأعمال الروائية للمؤلف:

1-(أولاد المنصورة) الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة نادي القصة.

2-(رحمة والخروج من الخيمة) الهيئة العامة للكتاب.

3-(العنف السري) المجلس الأعلى للثقافة .

4-(فئران شارع سعاده) الهيئة العامة للكتاب.

5-(شفاه من الملح) الهيئة العامة للكتاب.

الفهرس